مطبوعات أخبار اليوم

ليلة القدر

الشيخ/ محمد الغزالى
د.محمد سيد طنطاوى
د.أحمد عمر هاشم

القرآن وليلة القدر

الشيخ محمد الغزالى
د. محمد سيد طنطاوى
د. أحمد عمر هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم هو دستور الله الخالد الذى جاء يخرج الناس من الظلمات الى النور . . ظلمات الشرك والجهل والعبودية والتخلف . . الى نور التوحيد والعلم والحرية والحضارة .

وقد شاء الله العظيم أن يبدأ نزول القرآن الكريم فى شهر رمضان الكريم ، وقد كان نزوله فى هذه الليلة المباركة . . ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر . . فكانت ـ هذه الليلة ـ هى عيد ميلاده الشريف ، الذى ولدت معه الأمة الفتية التى سادت العالم ، ونشرت فيه المدنية والحضارة ، وأقرت بين ربوعه . . الأمن والسلام . . هذه الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وهذا الكتاب "القرآن وليلة القدر" نظرات تأمل وفكر فى كتاب الله الكريم ، وسياحة مفعمة بالأمل والرجاء فى رحاب ليلة عيد ميلاده العظيم ، يقدمها ثلاثة من كبار علمائنا ومفكرينا هم : فضيلة العالم الجليل الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الجمهورية ، والدكتور أحمد عمر هاشم أستاذ مادة الحديث الشريف فى جامعة الأزهر .

انهم يقدمون هذه النظرات فى ضوء القرآن الكريم والسيرة النبوية والحديث الشريف ، فى محاولة للتعريف بهذا الدستور الالهى الخالد ، وليلته العظيمة . . هدية لهذه المناسبة الكريمة . . وتحية للقارىء الكريم .

مكتبة أخبار اليوم الاسلامية



فى ضوء القرآن الكريم

- □ القرآن : اسماؤه وعلومه ومقاصده
- □ ماذا عن الحديث القدسي .. والحديث النبوى ؟
- □ أول وآخر ما نزل من القرآن
- □ لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة ؟
- □ المكى والمدنى من القرآن !
- □ معرفة اسباب النزول .. لماذا ؟
- □ القصة القرآنية .. لها مقصد وهدف

يكتب هذا الفصل :

د . محمد سيد طنطاوى



القرآن : اسماؤه .. وعلومه .. ومقاصده

القرآن الكريم : هو كلام الله ـ تعالى ـ المُنَزَّل على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته ، المعجز بأقصر سورة منه .

ولفظ « القرآن » فى الأصل كالقراءة ، مصدر قرأ قراءة وقرآنا ، قال ـ تعالى ـ : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرانه . ثم إن علينا بيانه » .

[سورة القيامة : الآيات من ١٦ ـ ١٩]

أى ؛ لا تتعجل ـ أيها الرسول الكريم ـ بقراءة القرآن الكريم عندما تسمعه من أمين وحينا جبريل ـ عليه السلام ـ ، بل تريث وتمهل حتى ينتهى من قراءته ، ثم اقرأ من بعده ، فإننا قد تكفلنا بجمعه فى صدرك ، وبقراءته عليك عن طريق وحينا .

ومادام الأمر كذلك : فمتى قرأ عليك جبريل القرآن فاتبع قراءته ولا تسبقه بها ، ثم إن علينا بعد ذلك بيان ما خفى عليك منه ، وتوضيح ما خفى عليك من معانيه .

فلفظ قرآن فى هذه الآيات بمعنى القراءة ، التى هى ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض فى الترتيل .

وهو مصدر على وزن « فعلان » كالغفران والشكران ، تقول : قرأ فلان الشيء قراءة وقرآنا بمعنى واحد .

وقد خص القرآن ـ بمعنى الكلام المقروء ـ بالكتاب المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فصار كالعلم الشخصى له .

ويطلق هذا اللفظ على جميع سور القرآن الكريم وآياته ، كما يطلق على كل آية وسورة منه ، فاذا سمعت من يتلو آية أو سورة منه ، صح لك أن تقول : سمعت قرآنا ، أو قرأت قرآنا . .

قال ـ تعالى ـ : « واذا قرىء القرآن ـ أي بعضه ـ فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ».

[سورة الأعراف : الآية : ٢٠٤]



وللقرآن الكريم أسماء كثيرة منها :

لفظ « القرآن » : كما فى قوله تعالى - : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » [سورة الاسراء : الآية ٩]

ولفظ « الكتاب » كما فى قوله - سبحانه - : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » [ابراهيم : ٢]

ولفظ « الفرقان » كما فى قوله - عز وجل - : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده . . . » [سورة الفرقان : الآية ١]

ولفظ « الذكر » كما فى قوله - تعالى - : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفانتم له منكرون » [الأنبياء : ٥٠]

ولفظ « التنزيل » كما فى قوله - سبحانه : « وانه لتنزيل رب العالمين » [سورة الشعراء : الآية ١٩٢]

كذلك للقرآن الكريم أوصاف كثيرة ، منها : وصفه بأنه « نور » . قال - تعالى - : « ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا اليكم نورا مبينا » [سورة النساء : الآية ١٧٤]

ووصفه بأنه « هدى » و« شفاء » و « رحمة » و « موعظة » ، نرى ذلك واضحا فى قوله - تعالى - : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » [سورة يونس : الآية ٥٧]

ووصفه بأنه « مجيد » قال - تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » [سورة البروج : ٢١ ، ٢٢]

ووصفه بأنه « مبارك » . كما فى قوله - عز وجل - : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه » [سورة الأنعام : الآية ٩٢]

ووصفه بأنه « مبين » ، قال - تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » [المائدة : الآية ١٥]

الى غير ذلك من الصفات الجليلة ، والنعوت السامية التى وصف الله - تعالى - بها هذا القرآن



أما لفظ « علوم القرآن » ، فالمقصود به : العلوم التى تخدم القرآن الكريم ، من حيث معرفة أول ما نزل منه وآخر ما نزل ، ومن حيث معرفة ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل منه بعد الهجرة ، ومن حيث معرفة أسباب نزول بعض اياته ، ومن حيث معرفة جمعه وترتيبه وعدد آياته ، وسوره ، ومحكمه ومتشابهه ،

وناسخه ومنسوخه ، واعجازه ، وأمثاله ، وأقسامه ، وجدله ، وقصصه ، وتفسيره . . الى غير ذلك من العلوم التى تتعلق بالقرآن الكريم .

وقد ألف كثير من العلماء ـ قديما وحديثا ـ مباحث متعددة فى علوم القرآن ، فمن العلماء القدامى الذين ألفوا فى علوم القرآن : الامام بدر الدين الزركشى ، المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، وقد سماه : « البرهان فى علوم القرآن » ، وقد تم طبعه فى اربعة مجلدات ، وتناول فيه الامام الزركشى كثيرا من مسائل علوم القرآن .

ومنهم الامام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وكتابه « الاتقان فى علوم القرآن » يعد على رأس المؤلفات الجامعة التى ألفت فى هذا الفن .

ومن العلماء المحدثين الذين ألفوا فى علوم القرآن : فضيلة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى ـ رحمه الله ـ فقد كتب كتابا جامعا فى هذا الفن بعنوان : « مناهل العرفان فى علوم القرآن » وقد كتبه فضيلته بعبارة أدبية بليغة ، وبأسلوب علمى محرر ، فرحمة الله عليه رحمة واسعة .



اما المقاصد التى من أجلها أنزل الله ـ تعالى ـ القرآن الكريم على قلب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهى مقاصد سامية ، ولأهداف عالية ، ولغايات نبيلة ، من أهمها ما يأتى :

أن يكون هداية للناس ـ بل للانس والجن ـ فى كل زمان ومكان . .

ومن الآيات القرآنية التى وصف الله ـ تعالى ـ بها كتابه ، بأنه هداية للناس إلى ما يسعدهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، قوله ـ تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » [سورة البقرة : الآية ٢]

أى : ذلك الكتاب وهو القرآن الكريم ، ليس محلا لأن يرتاب عاقل فى كونه من عند الله ـ تعالى ـ ، وقد أنزله ـ سبحانه ـ على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليكون هداية وارشادا للمتقين ، الذين يجتنبون كل مكروه من قول أو فعل .

والمراد بكونه هداية للمتقين ، مع أنه هداية لهم ولغيرهم ، لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم ، كما قال ـ سبحانه ـ : « قل هو ـ أى : القرآن ـ للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » [سورة فصلت : الآية ٤٤]

ومن الآيات القرآنية التى وصفت القرآن بأنه هداية للجن ـ أيضا ـ قوله ـ تعالى ـ : «قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » [سورة الجن : الآيتان ١ ، ٢]

وانما كانت هداية القرآن الكريم للانس وللجن ، لأن الرسول الذى نزل

عليه هذا القرآن ، وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت رسالته الى الثقلين ، ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » [سورة الأنبياء : الآية ١٠٧]

أى : وما أرسلناك ـ أيها الرسول الكريم ـ بهذا الدين الحنيف ، وهو دين الاسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الانس والجن .

وذلك لاننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى حياتهم وبعد مماتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما كلفتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه .



وفى الحديث الشريف : « انما أنا رحمة مهداة » فرسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة فى ذاتها ، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

قال صاحب الكشاف : أرسل الله رسوله ـ رحمة للعالمين ، لأنه جاءهم بما يسعدهم ان اتبعوه ، ومن خالف ولم يتبع فإنما جنى على نفسه ، ومثاله : أن يفجر الله عينا عذبة ، فينتفع بها العقلاء ، ولا ينتفع بها الجهلاء . . . » [تفسير الكشاف بتصرف : ص ٣ ص ١٣٨]

وتمتاز هداية القرآن الى جانب عمومها ، بكمالها ويسرها .

أما كمالها فتراه فى أحكامها وتشريعاتها وآدابها ، التى انتظمت كل ما يحتاج اليه الناس فى عقائدهم ، وعباداتهم ، ومعاملاتهم ، وسلوكهم . . . وصدق الله اذ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا . . . . » [سورة المائدة : الآية ٣] .

وأما يسرها فحدث عنه ولا حرج ، فهى لم تكلف الناس الا بما هو فى مقدورهم وطاقتهم ، والآيات القرآنية التى وضحت هذا المعنى وقررته كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها . . . » [سورة البقرة : الآية ٢٨٦] وقوله ـ سبحانه ـ : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » [سورة البقرة : الآية ١٨٥] وقوله ـ عز وجل : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج . . » [سورة الحج : الآية ٧٨] وقوله ـ تعالى ـ : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » [سورة النساء : الآية ٢٨] .



أما المقصد الثانى الذى من أجله أنزل الله ـ تعالى ـ القرآن الكريم ، فهو أن يكون معجزة خالدة باقية ، دالة دلالة قاطعة على صدق النبى ـ صلى الله عليه

وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه . فقد جاء ـ رسول الله عليه السلام ـ الى الناس وقال لهم : انى رسول الله اليكم جميعا ، والدليل على صدقى أن الله ـ تعالى ـ قد أنزل علىّ هذا القرآن ليكون معجزة لى ، فإن كنتم فى شك من أمرى ، فهاتوا ـ وأنتم أرباب البلاغة والفصاحة ـ مثله ، فعجزوا وانقلبوا صاغرين !!

قال ـ تعالى ـ : « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » [سورة الطور : الآية ٣٤]

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة القرآن ، فما استطاعوا . .

قال ـ تعالى ـ : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » [سورة هود : الآية ١٣]

أى : أيقول لك ـ أيها الرسول الكريم ـ هؤلاء المشركون ، أنك افتريت هذا القرآن ، واخترعته من عند نفسك ، قل لهم على سبيل التوبيخ والتحدى : ان كان الأمر كما تزعمون ، فأنا واحد منكم ، وبشر مثلكم ، فهاتوا أنتم عشر سور من عند أنفسكم ، تشبه هذا القرآن فى حسن نظمه ، وبلاغة أسلوبه ، وادعوا لمعاونتكم فى ذلك من شئتم من أعوانكم ، ان كنتم صادقين فى زعمكم أنى قد افتريت هذا القرآن ، ولم آت به من عند الله عز وجل . .



ثم أرخى لهم الزمام أكثر وأكثر ، فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سور القرآن التى تبلغ أربع عشرة سورة فوق المائة .

قال تعالى ـ : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » [سورة يونس : الآية ٣٨]

أى : أن هؤلاء الكافرين قد قالوا لك يا محمد انك قد افتريت هذا القرآن ، وألفته من عند نفسك ، وليس هو من عند الله ـ تعالى ـ

قل لهم على سبيل التبكيت والتعجيز : ان كان الأمر كما زعمتم ، من أنى أنا الذى ألفت هذا القرآن ، فاتوا أنتم يابلغاء العرب بسورة واحدة مثل سور القرآن الكريم ، فى الهداية والبلاغة وقوة التأثير ، وقد أبحت لكم أن تستعينوا بكل من هو على شاكلتكم فى الكفر والضلال ، ان كنتم صادقين فى دعواكم أن هذا القرآن ليس من عند الله ـ تعالى ـ

وشبيه بهذه الآية الكريمة فى التحدى قوله ـ تعالى ـ : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » [سورة البقرة : الآيتان ٢٣ ، ٢٤]



والمعنى : ان ارتبتم - أيها المشركون - فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فأتوا أنتم بسورة من مثل هذا القرآن فى سمو الرتبة ، وعلو الطبقة ، واستعينوا على ذلك بآلهتكم ، وبكل من تتوقعون منه العون ، ليساعدكم فى مهمتكم ، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بسورة تماثل سورة من القرآن .

وان كنتم صادقين فى مزاعمكم فانا أتحداكم أن تأتوا بسورة من مثله . . وفى هذه الآية الكريمة اثارة لحماستهم ، اذ عَرَّضَ - سبحانه - بعدم صدقهم ، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

ثم بين - سبحانه - أنهم لن يستطيعوا ذلك فقال : فإن لم تفعلوا ، أى - فإن لم تستطيعوا الاتيان بسورة من مثل القرآن ، ولن تستطيعوا ذلك مطلقا ، فاتركوا العناد ، وآمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - واتقوا النار التى ستدخلونها بسبب اصراركم على كفركم ، تلك النار التى أعدها الله - تعالى - لكل من أعرض عن دعوة الحق .

وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الاخبار بالغيب ، اذ لم تقع المعارضة ولا الاتيان بسورة من مثل سور القرآن لا من المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم -، ولا من غيرهم ممن أتى بعدهم الى يومنا هذا .

قال صاحب كتاب الكشاف - رحمه الله - : فإن قلت : من أين لك إنه اخبار بالغيب على ما هو عليه حتى يكون معجزة ؟

قلتُ : لأنهم لو عارضوه بشىء ، لم يمتنع أن يتواصفه الناس ، ويتناقلوه ، اذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لاسيما والطاعنون فيه - أى : فى القرآن - أكثف عددا من الذَّابِّين عنه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به ، فكان معجزة » [تفسير الكشاف : جـ ١ ص ١٠٢]



أما المقصد الثالث الذى من أجله أنزل الله - تعالى - هذا القرآن ، فهو أن يتقرب الناس اليه - سبحانه - بتلاوته ، وبالاستماع اليه ، وبتدبر معانيه، ولقد جاءت الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، بالبشارات المتعددة للذين يقرأون القرآن الكريم ، أو يستمعون اليه بخشوع وتأمل .

أما الآيات القرآنية فمنها قوله - تعالى - : « ان الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » [سورة فاطر : الآية ٢٩]

ومنها قوله ـ عز وجل ـ : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ، لعلكم ترحمون » [سورة الأعراف : الآية ٢٠٤]

وأما الاحاديث النبوية التى وردت فى فضل قراءة القرآن ، وفى عظم ثواب من يفعل ذلك فهى كثيرة ، ومنها : ما أخرجه الامام مسلم فى صحيحه ، عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « اقرأوا ، القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة ، شفيعا لأصحابه » .

وأخرجه البخارى فى صحيحه عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه ».

وفى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به ـ أى : مجيد لتلاوته ـ مع السَّفَرة الكرام البررة ـ أى : مع الملائكة المقربين فى الدرجة ـ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ـ أى : ويتردد عليه فى قراءته ـ وهو عليه شاق ، له أجران عند الله » .

وأخرجه الامام الترمذى فى سننه عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : من قرأ حرفا من كتاب الله ، فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول : الم حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

هذه أهم المقاصد والأغراض التى من أجلها أنزل الله القرآن الكريم ، وهناك مقاصد أخرى لا مجال لذكرها هنا ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .



وماذا عن الحديث القدسي والحديث النبوى ؟

سبق أن قلنا فى تعريف القرآن الكريم : انه كلام الله ـ تعالى ـ المنزل على قلب نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، المتعبد بتلاوته ، المعجز بأقصر سورة منه .

أما الحديث القدسي : فهو ما يضيفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الله ـ تعالى ـ من أقوال . . . مثال ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يقول الله ـ تعالى ـ : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه . . . » .

وأما الحديث النبوى : فهو ما أضيف الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة .

فالقول : كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى . . . . » . وكقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات . . . »

والفعل : كتعليمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه كيفية الصلاة ، وكيفية الحج ، فقد ثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وقال : « خذوا عنى مناسككم »

والاقرار : كاقراره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فعله بعض أصحابه من قول أو فعل ، سواء أكان ذلك فى حضرته ـ صلى الله عليه وسلم ، أم فى غيبته ثم بلغه ذلك .

ومن أمثلة هذا اللون من الاقرار : ماثبت من أن بعض الصحابة أكل ضبا بحضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يعترض على ذلك ، وعندما سئل ـ صلى الله عليه وسلم ـ لماذا لم يأكل منه ؟ قال : « انه ليس من طعام أهلى فأرانى أعافه » .

وما ثبت من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته وهو امام بهم ، فيختتم قراءته بسورة « قل هو الله أحد » فلما

رجع أهل السرية ذكروا ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : سلوه لماذا كان يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها .

فقال : صلى الله عليه وسلم : فأخبروه بأن الله ـ تعالى ـ يحبه .

والصفة : كوصف السيدة عائشة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه كان خلقه القرآن وكوصف أصحابه له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، الى غير ذلك من صفاته الخِلْقية والخُلُقية ـ صلى الله عليه وسلم .



وتتفق هذه الألفاظ الثلاثة ـ القرآن ـ الحديث القدسى ـ الحديث النبوى ـ فى أنها من حيث المعنى من عند الله ـ تعالى ـ ، اذ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينطق بقول يتعلق بالعقائد أو العبادات أو المعاملات أو السلوك . . . الا بوحى أو إلهام من الله ـ تعالى ـ

قال ـ سبحانه ـ : « والنجم اذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . . . » .

أى : وحق النجم الذى ترونه بأعينكم ـ أيها الناس ـ عند غروبه وأفوله . . . ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أرسلناه اليكم شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ماضل عن طريق الحق فى أقواله أو أفعاله ، وما كان رأيه مجانبا للصواب فى أمر من الأمور ، وما ينطق بنطق صادر عن هوى نفسه ورأيه ، وانما ينطق بالحق والصواب الذى نوحيه اليه ، من قرآن كريم ، أو نلهمه اياه من قول سديد ، وتوجيه حكيم .

قال الامام ابن كثير : قوله : « وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » : أى : انما يقول ما أمر بتبليغه الى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولانقصان » . .

فعن عبدالله بن عمرـ رضى الله عنهما ـ قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أريد حفظه ، فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشر يتكلم فى الغضب . فأمسكت عن

الكتابة ، فذكرت ذلك له فقال : « اكتب فو الذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا أقول الا حقا » . فقال بعض أصحابه : « فإنك تداعبنا يا رسول الله . فقال : انى لا أقول إلا حقا . [تفسير ابن كثير ص ٤ و ٢٤٧]

وهناك فروق بين القرآن وبين الحديث القدسى والنبوى من أهمها :

أ ـ أن القرآن ألفاظه ومعانيه من عند الله ـ تعالى ـ فهو وحى باللفظ والمعنى بخلاف الحديث القدسى ، فألفاظه ـ على الراجح ـ من عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، أما الحديث النبوى فألفاظه من عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتفاقا .

ب ـ أن القرآن لا تجوز روايته بالمعنى ، بخلاف الحديث القدسى والحديث النبوى فتجوز روايتهما بالمعنى .

جـ ـ أن القرآن هو الذى ثبت به التحدى والاعجاز ، أما الحديث القدسى والنبوى فلم يقع بهما شىء من ذلك .

د ـ أن القرآن منقول جميعه بالتواتر ، فهو قطعى الثبوت ، أما الأحاديث القدسية والنبوية ، فمنها المتواتر ، ومنها الصحيح ، ومنها الحسن ، ومنها الضعيف .

هـ ـ أن القرآن هو المتعبد بتلاوته ، بمعنى أن الصلاة لا تصح الا بقراءة شىء منه ، بخلاف الأحاديث القدسية والنبوية فلا يقرأ شىء منهما فى الصلاة . . . الى غير ذلك من الفروق التى ما ذكرناه هو أهمها .



أول وآخر ما نزل من القرآن

معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن من المسائل التى مدار البحث فيها على الرواية والنقل الصحيح عن الصحابة ، ولا مجال للعقل فيها الا بمقدار الجمع بين الروايات ، أو الترجيح بينها .

والرأى الصحيح الذى عليه المحققون من العلماء : أن أول ما نزل من قرآن على الاطلاق على النبى ـ صلى الله عليه وسّلم ـ هو صدر سورة العلق .

فقد أخرج الشيخان وغيرهما ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : أول ما بُدِىءَ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى : الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤياً الا جاءت مثل فلق الصبح ـ أى : ضياء النهار ـ ثم حبب اليه الخلاء ـ أى : الخروج الى الصحراء ـ فكان يأتى غار حراء فيتحنث ـ أى : فيتعبد ـ فيه الليالى ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع لخديجة ـ رضى الله عنها ـ فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : ما أنا بقارىء . . فأخذنى فَغَطَّنِي ـ أى : فضمنى ـ حتى بلغ منِي الجهد ـ أى : التعب ـ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء . فغَطنى الثانية حتى بلغ من الجهد ، ثم أرسلنى فقال : إقرأ فقلت : ماأنا بقارىء . فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

فرجع بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم « ترجف بوادره . . . » الى آخر الحديث .

فهذا الحديث الصحيح ، يدل دلالة واضحة ، على أن أول ما نزل من قرآن على الاطلاق على قلب ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ هو صدر سورة اقرأ . .

وقد ذكر الامام السيوطى فى كتابه « الاتقان » بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك ، ومنها ما أخرجه الطبرانى عن أبى رجاء العطاردى قال : كان أبوموسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ يقرئنا ، فيجلسنا حلقا وعليه ثوبان أبيضان ، فاذا تلا هذه السورة « اقرأ باسم ربك الذى خلق » قال : هذه أول سورة نزلت عل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ومن العلماء من يرى أن أول ما نزل من قرآن على الاطلاق هو سورة « المدثر » .

وحمل المحققون من العلماء هذا القول على أنه أول ما نزل بعد فترة الوحى ، أو أول ما نزل كسورة كاملة ، وبذلك لا يكون هناك تعارض بين القولين .



أما آخر ما نزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قرآن على الاطلاق ، فهو قوله ـ تعالى ـ: « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » [سورة البقرة : الآية ٢٨١]

فقد أخرج النسائى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : آخر ما نزل من القرآن كله ، قوله ـ تعالى ـ « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله . . . الآية » . وعاش النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزولها تسع ليال . . . » .

وهذا الرأى هو أقرب الأقوال الى الصواب ، لأن الآية الكريمة تحمل فى طياتها الاشارة الى ختام الوحى والدين ، بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم القيامة ، وما تنوه به من الرجوع الى الله ـ تعالى ، ولأن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قد ذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عاش بعد نزولها عليه تسع ليال فقط .

وقد يقال : ان بعض الناس يظن أن آخر ما نزل من قرآن على الاطلاق ، هو قوله ـ تعالى ـ « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا . . . » [سورة المائدة : الآية ٣]

والجواب أن هذه الآية الكريمة قد نزلت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجة الوداع من السنة العاشرة بعد الهجرة . أى : قبل وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأكثر من شهرين ، أما آية : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله . . » فكان نزولها قبل وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتسع ليال فقط ، كما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ

فإن قيل : فما المراد باكمال الدين ، واتمام النعمة فى قوله ـ سبحانه ـ : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى . . . » ؟

فالجواب : أن المراد بذلك : انجاح الدين واقراره واظهاره واتمام تشريعاته وأحكامه وآدابه ، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها ، وتمكن المسلمين من

أداء مناسك الحج والطواف بالمسجد الحرام ، دون أن يشاركهم فى ذلك غيرهم من المشركين .

قال الامام القرطبى : وقد روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب فقال له : يا أمير المؤمنين : آية فى كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود ، لا تخذنا ذلك اليوم عيدا .. فقال له عمر : أية آية تعنى ؟ فقال : قوله ـ تعالى ـ « اليوم أكملت لكم دينكم ... » فقال عمر : انى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه ، والمكان الذى أنزلت فيه. نزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعرفة فى يوم الجمعة ، ـ يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة بعد الهجرة ـ» [تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٦١]

والخلاصة : أن الرأى الصحيح الذى تطمئن اليه النفس ، هو أن أول ما نزل على الاطلاق من قرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هو قوله ـ تعالى ـ : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »

وأن آخر ما نزل من قرآن على الاطلاق على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هو قوله ـ تعالى ـ : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .



أما أول ما نزل وآخر ما نزل فى موضوعات معينة ، فقد تكلم العلماء عنها بشىء من التفصيل ، ومن ذلك أنهم قالوا :
أول ما نزل فى النهى عن التعامل بالربا قوله ـ تعالى ـ : « وما آتيتم من ربا ليربوَ فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعِفون » [سورة الروم : الآية ٣٨] .
وآخر ما نزل فى تحريم الربا الآيات التى فى أواخر سورة البقرة ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » [من الآية ٢٧٥ .]

وأول ما نزل فى الخمر ، قوله ـ تعالى ـ : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما . . . » [سورة البقرة : الآية ٢١٩]

وآخر ما نزل فى شأن تحريم الخمر قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » [سورة المائدة : الآيتان ٩٠ ، ٩١] الى غير ذلك مما ذكروه فى شأن أول ما نزل وآخر ما نزل فى أمور معينة .

ولمعرفة ذلك فوائد من أهمها :

أ : بيان العناية التى حظى بها القرآن الكريم من الصحابة ، فهم لم يكتفوا بحفظ القرآن ، بل وعوا وعرفوا زمان ومكان نزول آياته .

ب ـ ادراك أسرار التشريع الاسلامى ، وتدرجه فى الأحكام التى شرعها للمسلمين ، وكيف أن آيات القرآن الكريم قد سلكت فى ذلك أقوم السبل ، وأحكم الطرق ، وأبلغ الأساليب ، مما يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .



لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة ؟

قلنا فى المبحث السابق : ان أول ما نزل من قرآن على الاطلاق على النبى ـ صلى الله عليه وسلم : أول سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

وكان ذلك قبيل أن يبلغ الأربعين من عمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقبيل تكليفه بدعوة الناس الى اخلاص العبادة لله الواحد القهار .

وان آخر ما نزل من قرآن على الاطلاق عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هو قوله ـ تعالى ـ : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »

وكان ذلك قبيل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتسع ليال ، كما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما . . والمدة الزمنية بين أول ما نزل من قرآن ، وآخر ما نزل ، تصل الى ثلاث وعشرين سنة ، وخلال تلك المدة الطويلة تتابع نزول القرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى ؛ أن القرآن لم ينزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دفعة واحدة ، وانما نزل مفرقا فى تلك المدة الطويلة .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة ، وأشار الى الحكمة فى نزول القرآن منجما ، فى قوله ـ تعالى ـ : « وقرآنا فَرَقْنَاه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » [الاسراء ١٠٦]

أى : لقد أنزلنا اليك ـ أيها الرسول الكريم ـ هذا القرآن ، مفصلا فى أوامره ونواهيه ، وفى أحكامه وأمثاله . . . ومنجما فى نزوله ، لكى تقرأه على الناس على تؤدة وتمهل وتأن وحسن ترتيل ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقا عمليا دقيقا .

قال أبوعبدالرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكانوا اذا تعلموا عشر آيات ، لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا .

وقوله ـ سبحانه : « ونزلناه تنزيلا » : أى : ونزلنا عليك هذا القرآن تنزيلا مفرقا فى مدة تصل الى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه فحسب .

وفى سورة الفرقان آيتان كريمتان أشارتا ـ أيضا ـ إلى جانب من الحكم التى من أجلها نزل القرآن منجما ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » [الآيتان : ٣٢ ، ٣٣]

أى : وقال الكافرون بالحق الذى جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هَلاَّ نزل هذا القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة واحدة ، دون أن ينزل مفرقا كما نراه ونسمعه ؟

ولما كان قولهم هذا يدل على سوء أدبهم ، لأنهم اقترحوا شيئا لا مدخل لهم فيه ، ولا علم عندهم بحكمته . . . لمّا كان الأمر كذلك ، فقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم بقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » .

أى : أنزلناه كذلك مفرقا ، وجعلنا بعضه ينزل إثر بعض ، لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا بديعا ، بأن قرأه عليك جبريل على تمهل وتؤدة .

فسر ـ أيها الرسول الكريم ـ فى طريقك ، ولا تلتفت الى سفاهات المشركين ، فانهم لا يأتونك بمثل هذا الكلام العجيب المتهافت ، الا جئناك فى مقابلته بالجواب الحق ، الذى يزهق باطلهم ، ويدحض شبهاتهم .



وقد ذكر العلماء حكما متعددة لنزول القرآن مفرقا من اهمها ما يأتى :

أ ـ تسليته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه من أذى ، فقد تعرض ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ بعثته لألوان من الأذى الشديد ، الذى تمثل فى المساومة ، والمقاطعة ، والتعنت ، والعدوان ، والترهيب ، ومحاولة قتله .

فكان القرآن ينزل عليه ، ليهون عليه البلاء ، وليرفع عن كاهله الحزن والعناء ، وليسليه عما لحق به من أعدائه من تطاول واستهزاء .

وهذه التسلية نراها تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، وما أصابهم من الجاهلين والجاحدين .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى ، قوله ـ تعالى ـ : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . . . » [سورة هود : الآية ١٢٠]

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين ، نقص عليك أيها الرسول الكريم وعلى أصحابك ـ ونخبرك به ، فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق الى الناس ، وجاءك ـ أيها الرسول الكريم ـ فى هذه السورة وفى غيرها

من سور القرآن ، ما فيه الحق الثابت ، والعظات البليغة ، والذكرى النافعة . .

وتارة تأتى هذه التسلية عن طريق بيان أن العاقبة له ، وأن النصر فى النهاية سيكون له ولأتباعه .

ومن الآيات التى قررت هذا المعنى قوله ـ سبحانه ـ : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » [سورة غافر : الآية ٥١] ومرة ثالثة نرى هذه التسلية عن طريق دعوته الى التأسى والاقتداء بمن سبقوه من الرسل فى الصبر وقوة التحمل .

ومن الآيات التى ذكرت ذلك قوله ـ تعالى ـ : « فاصبركما صبر اولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون ، لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون » [سورة الأحقاف : الآية ٣٥]



وطورا نرى القرآن الكريم يغرس هذه التسلية فى قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببيان أن أعداءه يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم ، الا أن الجحود والحسد والعناد هو الذى حملهم على عداوته . .

ومن الآيات التى أكدت هذا المعنى قوله ـ عز وجل : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » [سورة الأنعام : الآية ٣٣]

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « يقول الله ـ تعالى ـ مسليا رسوله فى تكذيب قومه له ، ومخالفتهم إياه ، قد أحطنا علما بتكذيبهم لك ، وحزنك وتأسفك عليهم ، واعلم ـ يا محمد ـ أنهم لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم ، كما قال أحد أعدائك لك : انا لا نكذبك يا محمد ولكنا نكذب ما جئت به . . » [تفسير ابن كثير : جـ٢ ص ١٣٠]

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ـ أى : فلعلك مهلك نفسك هما وغما ـ ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » [سورة الكهف : الآية ٦]

ومنها قوله ـ سبحانه ـ : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ان الله عليم بما يصنعون » [سورة فاطر : الآية ٨]

ومرة خامسة نرى هذه التسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأتيه عن طريق بيان أن الله ـ تعالى ـ قد عصمه من مكر أعدائه ، ومن مد أيديهم اليه بالقتل .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس . . » أي : يحميك من أن تمتد أيديهم اليك بالقتل .

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى ساقت ما ساقت من تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومن تثبيت لقلبه ، ومن تبشير له بأن النصر سيكون له ولأتباعه .



ب ـ التدرج فى تربية الأمة الاسلامية على ما يهديها الى الصلاح والبر والفلاح . . . وهذا التدرج لم يكن فيها يتعلق بالعقائد والعبادات ومكارم الأخلاق ، لأن هذه الأمور لا تقبل التدرج ، وقد حسم القرآن الحكم بشأنها منذ نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ تعالى ـ : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين » .

وانما كان هذا التدرج فى الأمور التى تتعلق ببعض العادات والمعاملات ، تيسيرا على الأمة .

ومن أمثلة التدرج فى العادات : تعاطى الخمر ، فقد جاءت شريعة الاسلام والناس يشربون الخمر بكثرة ، وانتشر ذلك بين غنيهم وفقيرهم ، فكان من رحمة الله بعباده أن تدرج معهم فى تنفيرهم من تعاطى الخمر .

وقد ذكر المحققون من العلماء أن أول مانزل فى التنفير من تعاطى الخمر ، قوله ـ تعالى ـ : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما . . » [البقرة ـ ٢١٩]

أخرجه الامام أبوداود فى سننه عن عمربن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية .

فَدُعِى عمر ـ رضى الله عنه ـ فقرئت عليه فقال : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » . فنزلت الآية التى فى سورة النساء ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . » [الآية ٤٣] فكان منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا أقام الصلاة ، نادى : لا يقربن الصلاة سكران .

فدعى عمر فقرئت عليه فقال : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا . . » ، فنزلت آيات سورة المائدة ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر

والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

فقال عمر : انتهينا ياربنا انتهينا ياربنا » .

ومن أمثلة التدرج فى المعاملات : النهى عن التعامل بالربا ، ثم تحريمه تحريما قاطعا ، فقد كان أول ما نزل من التنفير فى شأن التعامل بالربا ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة الروم : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » [الآية : ٣٩]

أى : وما تعاملتم به ـ أيها الأغنياء ـ من مال على سبيل الربا ، فانه لا يربو ولا يزيد عند الله ـ تعالى ـ، أما الذى يربو ويزيد عنده ـ تعالى ـ فهو ما تبذلونه من أموالكم على سبيل الصدقة والاحسان .

فهذه الآية الكريمة ، وان كانت لم تحدد عقوبة معينة لم يتعامل بالربا ، فانها قد أشارت الى أن التعامل به لاثواب له عند الله ـ تعالى ـ ، وانما الثواب المضاعف عنده ـ سبحانه ـ لمن يقد ون جانبا من أموالهم لغيرهم على سبيل الصدقة الخالصة لوجه الله ـ تعالى ـ .



ثم نزلت آية أخرى كانت أشد فى التنفير بالنسبة للتعامل بالربا ، وهى قوله ـ تعالى ـ: « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس الباطل . . » [سورة النساء : ١٦٠ ، ١٦١]

فقد بين ـ سبحانه ـ هنا ، أن على رأس الأسباب التى أدت الى غضب الله على اليهود : تعاملهم بالربا مع أنه ـ تعالى ـ قد نهاهم عن ذلك .

ثم جاءت سورة آل عمران ، فنفرت من الربا تنفيرا يفوق ما جاء فى السورتين السابقتين ، اذ نادى الله المؤمنين بقوله : « ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » [الآية ١٣٠]

أى : يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ ايمانا حقا ، لا يجوز لكم أن تتعاملوا بالربا ، بتلك الصورة البشعة التى هى واقعة بينكم ، والتى فيها يأخذ المرابى من المدين أضعاف رأس ماله .

والتقييد بقوله ـ سبحانه ـ : « أضعافا مضاعفة » : ليس المقصود منه النهى عن أكل الربا فى حال المضاعفة خاصة ، واباحته فى غيرها ، فالربا قليله وكثيره

حرام ، وانما المقصود منه توبيخهم على ما كان متفشيا فيهم ، وهو التعامل بالربا بتلك الصورة البشعة التى تدل على الأنانية وقسوة القلب .

أى : أن التقييد بالاضعاف المضاعفة ليس للتخصيص والاحتراز عما عداه ، وانما هو لمراعاة الواقع والغالب فيهم ، وتقبيحه والتنفير منه .

ثم نزلت بعد ذلك ست آيات فى أواخر سورة البقرة ، وكانت هذه الآيات من أواخر ما نزل من القرآن ، فحسمت مسألة التعامل بالربا حسما قاطعا ، اذ حرمته تحريما تاما الى يوم القيامة ، وشبهت الذين يتعاطونه بتشبيهات تفزع منها النفوس ، وأعلنت الحرب من الله ـ تعالى ـ ومن رسوله صلى الله عليه وسلم على كل من يتعاملون بالربا وهذه الآيات تبدأ بقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون . ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » [الآيات ٢٧٥ : ٢٨٠]

وهناك أمثلة أخرى للتدرج فى تربية الأمة يطول الحديث عنها .



جـ ـ كذلك من الحكم التى من أجلها نزل القرآن مفرقا : الاجابة على أسئلة السائلين . . . ولقد حكى القرآن الكريم كثيرا من الاسئلة التى وجهها السائلون الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل القرآن بالاجابة عليها .

ومن أمثلة ذلك قوله ـ تعالى ـ : « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلوا عليكم منه ذكرا . . . » [سورة الكهف : الآية ٨٣ وما بعدها]

وقوله ـ سبحانه ـ : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » [الاسراء : ٨٥]

وقوله ـ تعالى ـ : « يسألك الناس عن الساعة ، قل انما علمها عند الله . . . » [الأحزاب : ٦٣]

الى غير ذلك من الآيات التى أجابت على أسئلة السائلين ، التى وردت فى أزمنة وأمكنة مختلفة .

د ـ دفع التهم الباطلة عن أهل الحق ، وتبرئة ساحتهم مما افتراه المفترون فى شأنهم . ولاشك أن هذه التهم قد جاءت فى أوقات مختلفة ، فنزل القرآن لبيان وجه الحق فيها .

ومن الأمثلة على ذلك : حديث الافك الذى افتراه المنافقون على السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فنزلت بضع عشرة آية من سورة النور ، ترد على هؤلاء المنافقين ، وتأمر المؤمنين بالتثبت فى الأخبار ، وتتوعد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بسوء المصير فى الدنيا والآخرة . .

وهذه الآيات تبدأ بقوله ـ تعالى ـ : « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم مااكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . . » [الآيات من ١١ ـ ٢٦]



هـ بيان الحكم الحق العادل فى قضايا ملتبسة ، لا يعرف وجه الحق فيها الا الله ـ تعالى ـ ، لأن معالمها غير واضحة ، والبينة فيها خافية .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن رجلا اسمه « طعمة بن أبيرق » سرق شيئا معينا من جار له ، اسمه « قتادة بن النعمان » ثم وضعه عند رجل يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، وبعد أن بحث قتادة عن الشىء الذى سرق منه وجده عند ذلك الرجل اليهودى ، فاشتكاه الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، فلما سأله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سبب سرقته لهذا المتاع ، قال اليهودى : أنا ما سرقت شيئا ولكن طعمة هو الذى وضعه عندى ، فلما أحضر طعمة أنكر ذلك ، وجاء أقاربه معه يدافعون عنه ، ويلصقون السرقة باليهودى ! . .

وازاء هذه القضية التى التبست معالمها ، ووجد الشىء المسروق عند اليهودى الذى لا شهود عنده على براءته ، كاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحكم على اليهودى . . .

ولكن القرآن الكريم أنزل الله ـ تعالى ـ فيه تسع آيات من سورة النساء ، تحق الحق وتبطل الباطل ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ، ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . . . » [الآيات من ١٠٥ ـ ١١٣]

و ـ انشاء أحكام شرعية جديدة لم تكن موجودة من قبل ، لأن المصلحة تقتضيها رحمة من الله ـ تعالى ـ بعباده .

ومن أمثلة ذلك مشروعية الظهار الذى لم يكن موجودا قبل نزول قوله ـ تعالى ـ « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير . الذين يظاهرون من نسائهم ماهن أمهاتهم ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم ، وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وان الله لعفو غفور . . [سورة المجادلة : الآيات من ١ ـ ٤]

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزولها أن السيدة خولة بنت ثعلبة ـ رضى الله عنها ـ حدث بينها وبين زوجها نزاع فقال لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، ثم أراد أن يعاشرها بعد ذلك معاشرة الأزواج ، فامتنعت عنه ، ثم ذهبت الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقصت عليه ما حدث بينها وبين زوجها . فقال لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم ينزل فى شأنك شىء وما أراك الا طالقا . . .

ولكن المرأة أخذت تجادل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقول له : يا رسول الله ، انه لم يتلفظ بالطلاق . .

فأعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها قوله : « لم ينزل فى شأنك شىء وما أراك الا طالقا » .

فلم تيأس المرأة النقية الطاهرة من رحمة الله ـ تعالى ـ ، بل رفعت يديها الى السماء ، وهى فى مجلسها بجانب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذت تدعو الله ـ تعالى ـ بقولها : « اللهم انك تعلم أن زوجى شيخ كبير ، وأنا امرأة عجوز ، ولاغنى له عنى ، ولاغنى لى عنه ، وان لى منه أولادا ، ان تركتهم عنده ضاعوا ، وأن أخذتهم معى جاعوا ، اللهم ففرج كربتى ، واحلل عقدتى . . . »

وقبل أن تقوم من مجلسها بجانب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، نزلت هذه الآيات على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتحل قضية هذه المرأة وأمثالها ، عن طريق بيان كفارة الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى قاصدا بذلك تحريم زوجته على نفسه ، كتحريم أمه عليه .



ز ـ لفت المؤمنين الى أخطائهم حتى لا يعودوا اليها مرة أخرى ، كما حدث من بعضهم فى غزوة « أحد » ، فقد خالف الرماة ما وصاهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث وصاهم بأن يبقوا فى أماكنهم ولا يبارحوها لكى يحموا ظهور المسلمين ، ولكنهم بعد ان بدأت المعركة ، ورأوا أن المشركين قد هزموا ، تركوا

أماكنهم ، فانتهز بعض المشركين هذه الفرصة ، وأتوا الى المسلمين من الخلف ، فكان ما كان من اختلال صفوف المسلمين .

ونزلت عشرات الآيات من سورة آل عمران ، تحكى أحداث غزوة أحد ، وتذكر بعض المسلمين بأخطائهم ، وتحذرهم من الوقوع فيها مرة أخرى . .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنّى هذا ، قل هو من عند أنفسكم ، ان الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » [آل عمران الأيتان ١٦٥ ـ ١٦٦]

ومن أمثلة لفت المسلمين الى أخطائهم ـ أيضا ـ حتى لا يعودوا الى مثلها.. ما حدث من حاطب بن أبي بلتعة ، فقد أرسل كتابا الى أهل مكة ، يخبرهم فيه بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعد العدة لغزوهم ، وكان ذلك قبيل فتح مكة ، ونزل الوحى على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخبره بذلك ، فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض أصحابه فأحضروا الكتاب من المرأة التى كانت فى طريقها الى مكة والتى أرسلها حاطب لتلك المهمة .

ونزل قوله ـ تعالى ـ : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » [سورة الممتحنة : الآية ١]

. هذه بعض الحكم التى من أجلها نزل القرآن مفرقا فى مدة تصل الى ثلاث وعشرين سنة .

وكان نزوله بتلك الطريقة الحكيمة ، دليلا قاطعا على أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .



المكى والمدنى من القرآن

القول الصحيح فى تعريف المكى والمدنى من القرآن الكريم•أن القرآن المكى ما نزل قبل الهجرة ولو كان نزوله فى غير مكة ، وأن القرآن المدنى ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله فى غير المدينة .

فمثلا : قوله ـ تعالى ـ : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا . . . »

هذه الآية الكريمة كان نزولها فى عرفة عام حجة الوداع ، وقبل وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بزهاء ثلاثة أشهر ، ومع ذلك اعتبرها العلماء من الآيات المدنية ، لأن نزولها كان بعد هجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة الى المدينة المنورة .

وقوله ـ تعالى ـ : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . . » [سورة النساء : الآية ٥٨] هذه الآية نزلت بمكة وفى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم ، ومع ذلك فقد عدها العلماء من الآيات المدنية ، لأن نزولها كان بعد الهجرة .

وهذا القول كان هو الصحيح ، لأنه ضابط حاصر ، ومطرد غير مختلف ، بخلاف قول من قال بأن القرآن المكى ما نزل بمكة ، والمدنى ما نزل بالمدينة ، أو قول من قال بأن المكى ما بدىء بقوله ـ تعالى ـ : « ياأيها الناس » وأن المدنى ما بدىء بقوله ـ تعالى ـ « ياأيها الذين آمنوا » .

فان هذين القولين غير مطردين ، وغير حاصرين ، وغير ضابطين . .

فمثلا : هناك آيات لم تنزل لا فى مكة ولا فى المدينة ، كالآيات التى نزلت على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلال سيره الى غزوة تبوك لقتال الروم ، ومنها قوله ـ تعالى ـ : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة . . . » [سورة التوبة : الآية ٤٢]

ومثلا : كثير من الآيات القرآنية لم تبدأ لا بقوله ـ تعالى ـ : « ياأيها الناس » ولا بقوله ـ سبحانه ـ « باايها الذين أمنوا » وانما بدئت بقوله سبحانه ياأيها النبى او « ياأيها الرسول » أو بغير ذلك .

بل ان بعض الآيات التى بدئت بقوله ـ تعالى ـ « يأيها الناس » مدنية ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » [سورة البقرة : الآية ٢١]

فهذه الآية مع بدئها بقوله ـ تعالى ـ « يأيها الناس » مدنية ، لأنها من سورة البقرة ، التى اتفق العلماء على أنها من السور المدنية الخالصة . واذن فالرأى الصحيح : أن القرآن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ، بصرف النظر عن المكان أو عن المخاطب .

ومعرفة ان هذه السورة أو الآيات أو الآية مكية أو مدنية ، لامجال للوصول اليه الا عن طريق النقل الصحيح عن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ، لأنهم هم وحدهم الذين عاصروا نزول القرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وعرفوا ما نزل منه قبل الهجرة ، وما نزل منه بعد الهجرة ، وما نزل منه فى الحضر وما نزل منه فى السفر . .

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ـ : « والله الذى لا اله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله ، الا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيما نزلت . ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه » .



وللعلم بمعرفة ما هو مكى من القرآن وما هو مدنى فوائد من أهمها :

أ ـ تمييز الناسخ من المنسوخ ، فيما اذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم فى موضوع واحد ، وكان الحكم فى احدى هاتين الآيتين أو الآيات للحكم فى غيرها ، ثم عرف أن بعضها مكى وبعضها مدنى ، فإننا فى هذه الحالة وأمثالها نحكم بأن القرآن المدنى منها ناسخ للمكى ، لأن القرآن المدنى متأخر فى النزول عن المكى ، والمتأخر ينسخ المتقدم .

ب ـ ومن فوائده ـ أيضا ـ : معرفة التدرج فى التشريع ، وهذا يترتب عليه الايمان بسمو السياسة الاسلامية فى تربية الأفراد والجماعات .

جـ ـ ومن فوائده ـ كذلك ـ : الاقتناع التام بعناية الصحابة بهذا القرآن الكريم ، حيث عرفوا مكيه من مدنيه ، وبما بذلوه فى ذلك من جهد كبير ، دل

على حبهم للقرآن الكريم ، وعلى اهتمامهم بكل ما يتعلق به من أحكام ومن أسباب نزول .

وقد ذكر العلماء ضوابط لمعرفة ما هو مكى وما هو مدنى من القرآن ، ومن ذلك أنهم قالوا :

أ ـ كل سورة فيها لفظ « كلا » فهى مكية . وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة . ويوجد هذا اللفظ فى خمس عشرة سورة ، كلها فى النصف الثانى من القرآن .

قالوا : ولعل الحكمة فى ذلك : أن النصف الثانى من القرآن معظمه قد نزل قبل الهجرة ، وكان يخاطب قوما من الجبابرة المشركين ، فكان من المناسب تهديدهم وتبكيتهم بهذا اللفظ ، وهو لفظ « كلا » الذى يدل على الزجر والردع .

ب ـ كل سورة اشتملت على آية فيها سجدة تلاوة فهى مكية ، كسورة « النجم » وسورة « العلق » وغيرهما .

جـ ـ كل سورة افتتحت بحروف التهجى ، فهى مكية ، كسور : الأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وابراهيم ، والحجر . . .

ولم يستثن من ذلك سوى سورتى البقرة وآل عمران ، فانهما مدنيتان بالاتفاق .

د ـ كل سورة اشتملت على قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وعلى قصص غيرهم من الأمم السابقة ، فهى مكية ، باستثناء سورة البقرة .

هـ ـ كل سورة تحدثت عن قصة آدم وابليس فهى مكية ، باستثناء سورة « البقرة » ـ أيضا . .

أما ضوابط السور المدنية فمن أهمها :

أ ـ كل سورة فصلت الحديث عن الحدود والعبادات فهى مدنية .

ب ـ كل سورة فصلت الحديث عن الجهاد ومشروعيته ، وآدابه ، وفضائله ، وأحكامه ، فهى مدنية .

جـ - كل سورة فصلت الحديث عن المنافقين وأحوالهم ومكرهم وأوصافهم ، ومسالكهم لكيد الدعوة الاسلامية فهى مدنية .



وهناك سمات اجمالية ، وفروق كلية من حيث الموضوع ، نراها فى القر المكى والمدنى ، من أهمها ما يأتى :

أن السور المكية - فى مجموعها - نراها تتحدث بشىء من التفصـ والاسهاب ، عن : اقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله ، وعلى أن هذا القر من عند الله ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه وعلى أن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب حق لا ريب فيه . .

كما نرى أن السور المكية تهتم بايراد شبه المشركين ، ثم ترد عليها بما يزهـ ويقطع دابرها .

ولو أخذنا على سبيل المثال سورة الأنعام التى يغلب على الظن أن نزولها :

فى السنة الرابعة من البعثة - أى : أنها من السور المكية التى كان نزولها مبكـ لرأينا أن هذه السورة قد تحدثت عن هذه القضايا بشىء من التفصـ والاسهاب .

نراها تقيم الأدلة المتنوعة على وحدانية الله - تعالى - فى آيات كثيرة ، ذلك قوله - تعالى - : « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكـ وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله أخرى ، قل لا أشهد ، قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون » [ا ١٩]

نراها تقيم الأدلة على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن فى عشرات الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « قل أغير الله أتخذ وليا فـ السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل انى أمرت أن أكون أول أسلم ولا تكونن من المشركين . . . » [الآية ١٤]

وقوله - سبحانه - : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أ الغيب ، ولا أقول لكم انى ملك ، ان أتبع الا مايوحى الى ، قل هل يسـ الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » [الآية ٥٠]

نراها تتحدث عن أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يُصْرَف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين » [الآيتان ١٥ ، ١٦]

وقوله ـ عز وجل ـ : « ولو ترى اذ وُقِفُوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولورُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » [الآيتان ٢٧ ، ٢٨]

نراها تسوق لنا ألوانا من شبهات المشركين ، ثم ترد عليها بما يدحضها ، ومن ذلك قوله ـ سبحانه ـ : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » [الآيتان ٨ ، ٩]

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، التى فصلت الحديث عن هذه القضايا » .



أما السور المدنية فنراها فى مجموعها تفصل الحديث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام ، وأنواع القوانين المدنية ، والجنائية والاجتماعية ، وآداب العلاقات الشخصية والعامة ، وسائر ضروب العبادات والمعاملات .

نراها تفصل الحديث عن أهل الكتاب من حيث عقائدهم ، وأحوالهم ، وعلاقة المسلمين بهم . .

نراها تتحدث باستفاضة عن الجهاد فى سبيل الله وأحكامه وآدابه وفضله .

ولنأخذ على سبيل المثال سورة النساء التى كان نزولها بعد الهجرة ، فهى من السور المدنية الخالصة .

فإننا نراها فى مطلعها تتحدث فى خمس آيات شبه متوالية عن حقوق اليتامى ، وعن وجوب رعايتهم ، وعن المحافظة على أموالهم .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا » [الآية : ٢]

ثم تتحدث فى بضع آيات عن حقوق النساء ، وعن وجوب اعطائهن مهورهن كاملة ، فتقول : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ـ أى : هبة ـ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » [الآية : ٤]

ثم تتحدث بعد ذلك عن كيفية تقسيم التركة ، وتبين حق كل وارث ، فتقول : « يوصيكم الله فى أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين . . » [الآية : ١١]

ثم تتحدث بعد ذلك عن التوبة المقبولة ، وعن التوبة غير المقبولة ، وعن النساء اللاتى يحرم الزواج بهن ، وعن الاصلاح بين الزوجين . . قال ـ تعالى ـ : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا » [الآية : ٣٥]

ثم تنتقل الى الحديث عن أهل الكتاب ، وعن وجوب تأدية الأمانات الى أهلها ، وعن وجوب أخذ الحذر عند القتال .

قال ـ تعالى ـ : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » ثم عن رذائل المنافقين ، ومسالكهم لكيد الدعوة الاسلامية ، وعن حكم القتل العمد والقتل الخطأ . . .



وهكذا نرى أن السور المكية تفصل الحديث عن أصول الايمان ومكارم الأخلاق ، وأنباء الرسل . . أما السور المدنية فتفصل الحديث عن العبادات والمعاملات والعلاقات الانسانية . . ويبلغ عدد السور المدنية عشرين سورة ، وهى : البقرة ، آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقين ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

والسور المختلف فى شأنها ، أهى مكية أم مدنية : اثنتا عشرة سورة وهى : الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطفيف ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والاخلاص ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس .

أما السور المكية الخالصة فتبلغ اثنتين وثمانين سورة . . .

وبذلك يكون عدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة .

قال الامام أبوالحسن الحصار فى كتابه : الناسخ والمنسوخ ، فى منظومته التى تحدث فيها عن المكى والمدنى والمختلف فيه من سور القران الكريم . . .

وما سوى ذاك مكى تنزله . . فلا تكن من خلاف الناس فى حصر

فليس كل خلاف جاء معتبرا . . إلا خلاف له حظ من الأثر

وبعد : فهذه نبذة عن السور المكية والمدنية والمختلف فيها ، ومن أراد المزيد من معرفة ذلك ، فليرجع الى أمهات الكتب فى ذلك ، ومنها : « البرهان » للزركشى ، و « الاتقان » للسيوطى ، و« مناهل العرفان فى علوم القرآن » لفضيلة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى ـ رحمه الله .

معرفة أسباب النزول.. لماذا ؟

ان المتدبر فى القرآن الكريم ، يرى أن معظمه قد نزل ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب ، وانما نزل ليكون هداية للناس الى ما يسعدهم ويهديهم الى الصراط المستقيم .

كما يرى أن قسما منه قد نزل لسبب من الأسباب الخاصة ، كالاجابة على أسئلة السائلين ، وكإرشاد من أخطأ الى الحكم السليم .

ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع ، كتاب « لباب النقول فى أسباب النزول » للامام السيوطى .

ومعنى سبب النزول ، بيان ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ، أو مبينة لحكمه .

ومن الأمثلة لذلك : ما حدث بين الأوس والخزرج من خلاف بسبب دسيسة أشاعها بينهم شاس بن قيس اليهودى . . .

فأنزل الله ـ تعالى ـ آيات من سورة آل عمران ، نهت المؤمنين عن طاعة أعدائهم ، وأمرتهم بالاخاء والاتحاد ومراقبة الله ـ تعالى ـ .

نزل قوله ـ تعالى ـ : « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . . » [الآيات : ١٠٠ : ١٠٣]

ولمعرفة أسباب النزول فوائد من أهمها :

أ ـ الاستعانة على فهم الآية أو الآيات ، ودفع الاشكال عنها ، ومعرفة مقاصدها معرفة سليمة ، وتفسيرها تفسيرا صحيحا .

قال الامام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » .

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى الحديث الصحيح من أن عروة بن الزبير - رضى الله عنهما - أشكل عليه وجوب السعى بين الصفا والمروة ، فى قوله - تعالى - : « ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما . . . » [سورة البقرة : الآية ١٥٨]

وسبب هذا الاشكال أن الآية نفت الجناح ، ونفى الجناح - أى : الاثم والحرج - فى رأيه لا يتفق مع وجوب السعى بين الصفا والمروة فى حالة الحج أو العمرة .

فأفهمته السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن نفى الجناح ، ليس نفيا لوجوب السعى بينهما ، وانما هى نفى للحرج الذى وقر فى أذهان بعض المسلمين ، من أن السعى بينهما من أعمال الجاهلية ، لأنهم كانوا فى الجاهلية يسعون بينهما ، ويتمسحون بصنمين كانا موجودين عندهما .

جاء فى صحيح البخارى أن عروة بن الزبير ، قال للسيدة عائشة - رضى الله عنها - أرأيت قول الله - تعالى - : « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » فو الله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة !!

فقالت له عائشة : بئسما قلت يابن أختى ، ان هذه الآية لو كانت كما أولتها لكانت فلا جناح عليه ألا يطوف بهما ، ولكنها أنزلت فى الأنصار ، كانوا قبل أن يدخلوا فى الاسلام يهلون - أى : يحجون - لمناة الطاغية - أى : لصنم كبير - الذى كانوا يعبدونه عند المشلل - اسم مكان - ، فكانوا بعد الاسلام يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن ذلك وقالوا : انا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة - لأنه يذكرهم بما كانوا يفعلونه فى الجاهلية - فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

ثم قالت عائشة لعروة : وقد سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » .

والخلاصة : أن معرفة سبب النزول ، جعل السيدة عائشة تفهم الآية فهما سليما ، وتزيل الاشكال الذى وقر فى ذهن ابن أختها عروة بن الزبير !! .. بأن بينت له أن نفى الجناح ، المقصود به نفى الحرج عند بعض المسلمين الذين كان يذكرهم السعى بينهما بما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، وليس نفى وجوب السعى بينهما .

كذلك من فوائد معرفة سبب النزول : بيان ما هو حق وما هو باطل فيما وقع من أحداث .

ومن أمثلة ذلك : قصة طعمة بن أبيرق ، الذى سرق درعا ، وأودعها عند رجل يهودى ، فلما وجد صاحب الدرع درعه ، وذهب الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقص عليه ما حدث ، أنكر طعمة السرقة ، وادعى أن اليهودى هو الذى سرقها ، وجاء أقارب طعمة ليدافعوا عنه . . . فأنزل الله تسع آيات من سورة النساء ، بينت ما هو حق وما هو باطل فى هذه القضية الملتبسة .

نزلت هذه الآيات التى بدأت بقوله ـ تعالى ـ : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما . ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . . . » وبذلك كان معرفة سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، كاشفا عن السارق الحقيقى ، ومبرئا لمن اتهم ظلما بالسرقة .

وهكذا نرى أن لمعرفة سبب النزول للآية أو الآيات فوائد عدة ، اذ عن طريق هذا الفهم : يتيسر الحفظ ، ويسهل الفهم ، ويزول الاشكال ، ويثبت الحق ، ويزهق الباطل ، وتعرف الحكمة فيما شرعه الله ـ تعالى ـ من أحكام ، وبذلك يزداد المؤمنون ايمانا على ايمانهم .

ولا طريق لمعرفة أسباب النزول ، الا النقل الصحيح عن الصحابة ، فهم الذين عاصروا نزول القرآن ، وهم الذين نقلوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن هذه الآية أو الآيات نزلت فى حادثة كذا ، أو للاجابة على سؤال موضوعه كذا .



القصة القرآنية .. لها مقصد وهدف

ان الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى جانبا كبيرا من آياته وسوره ، قد اشتمل على قصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وعلى قصص غيرهم من الأخيار أو الأشرار .

يرى ذلك بصورة أكثر تفصيلا فى السور المكية ، التى كان نزولها قبل الهجرة ، لأنها فى الأعم الأغلب اهتمت باقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ وعلى أن البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب حق وصدق .

وهذه الأدلة ساقتها السور المكية تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وتارة عن غير ذلك من الطرق الأخرى ، كالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى خلق الانسان وغيره من سائر المخلوقات .

أما السور المدنية وهى التى كان نزولها بعد الهجرة ، فهى فى الأعم الأغلب اهتمت ـ بعد أن رسخت العقيدة السليمة فى قلوب المؤمنين ـ، بتفصيل أحكام الشريعة العملية ، كالعبادات ، والمعاملات ، والحدود ، والعلاقات الاجتماعية ، وتنظيم شئون الدولة الاسلامية داخليا وخارجيا . . .

فمثلا من السورالمكية التى اشتمل معظمها ، أو جانب كبير منها ، على قصص الأنبياء ، سور : الأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والشعراء ، والقصص ، والصافات . . . الخ

والقصة فى كل زمان ومكان لها أثرها العميق فى النفوس ، لما فيها من عنصر التشويق ، وجوانب الاعتبار والاتعاظ . . ولا تزال على رأس الوسائل التى يدخل منها الهداة والمصلحون والقادة ،. الى قلوب الناس وعقولهم ، لكى يسلكوا الطريق القويم ، ويعتنقوا الفضائل ، ويجتنبوا الرذائل ، ويسلموا وجوههم لله الواحد القهار ومن هنا ساق القرآن ما ساق من قصص

يمتاز بسمو الغاية ، وشريف المقصد ، وصدق الكلمة والموضوع ، وتحرى الحقيقة بحيث لا تشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع .

كما أن من مميزات قصص القرآن : اشتماله على طرق شتى فى التربية والتهذيب ، تارة عن طريق الحوار ، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار ، وطورا عن طريق التخويف والانذار نرى ذلك ـ على سبيل المثال فى قوله ـ تعالى ـ : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . . » [سورة هود : ١٠٠ ـ ١٠٣]



وللقصة فى القرآن الكريم أهداف سامية ، ومقاصد عالية ، وحكم متعددة ، من أهمها :

أ ـ بيان أن الرسل جميعا قد أرسلهم الله ـ تعالى ـ برسالة واحدة فى أصولها ألا وهى اخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وأداء التكاليف التى كلف ـ سبحانه ـ خلقه بها وقد وردت آيات كثيرة تدل على أن أول كلمة قالها كل رسول لقومه ، هى أمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ، ونهيهم عن عبادة أحد سواه .

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه ـ كما حكى القرآن عنه ـ : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » [الأعراف : ٥٩]

وهذا هود ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » [الأعراف : ٦٥]

وهذا صالح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » [الأعراف : ٧٣]

وهذا شعيب ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » [الأعراف : ٨٥]

فهذه الجملة الكريمة حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لقومهم من ارشادات وهدايات .

أى : قالوا لهم بكل لطف وأدب : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فانه هو المستحق للعبادة ، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

ويحكى القرآن الكريم هذا المعنى على لسان كل نبى فيقول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » [الأنبياء : ٢٥]

أى : وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - من رسول آخر ، الا وأفهمناه عن طريق وحينا ، أنه لا اله يستحق العبادة والطاعة الا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بذلك ، وأن ينهاهم عن عبادة غيرى .



ب - بيان أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن ما اشتمل عليه هذا القرآن من قصص للسابقين ، لا علم للرسول - صلى الله عليه وسلم - بها ، وانما علمها بعد أن أوحاها الله - تعالى - اليه ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه . استمع الى القرآن وهو يقرر ذلك فى مواطن متعددة ، فيقول فى أعقاب حديث طويل عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » [هود : ٤٩] أى : تلك القصة التى قصصناها عليك عن نوح وقومه من أخبار الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا ، ونحن « نوحيها اليك » ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها « ما كنت تعلمها » أنت يا محمد ، وما كان يعلمها « قومك » - أيضا - بهذه الصورة الصادقة الحكيمة « مِنْ قبل » هذا الذى الوقت أوحيناها اليك فيه .

ومادام الأمر كذلك « فاصبر » صبرا جميلا على تبليغ ما أمرك الله بتبليغه ، كما صبر أخوك نوح من قبلك ، واعلم أن العاقبة الحسنة للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضى الله - تعالى -

فالآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - ، قصد به الامتنان على النبى - صلى الله عليه وسلم - كما قصد به الموعظة والتسلية .

أما الامتنان فنراه فى قوله سبحانه : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وأما الموعظة فنراها فى قوله تعالى : « فاصبر » .

أما التسلية فنراها فى قوله ـ عز وجل ـ : « ان العاقبة للمتقين » .

وشبيه بذلك ما قاله ـ سبحانه ـ فى أعقاب الحديث الطويل عن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مع أخوته مع غيرهم قال ـ تعالى ـ : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » [يوسف : ١٠٢]

أى : ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد من قصة أخيك يوسف ، من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علما تاما شاملا الا الله ـ تعالى ـ وحده ، ونحن « نوحيه اليك » ونخبرك به لما فيه من العظات والعبر .

وأنت يا محمد ما كنت حاضرا مع اخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، وللاعتداء عليه ، وقد أخبرناك بذلك للاعتبار والاتعاظ .

ونرى مثل هذا المعنى أيضا ـ وهو الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى وحده ما قصه ـ سبحانه ـ علينا بعد حديث طويل عن جانب من قصة موسى ـ عليه السلام ـ ، وعن جانب من قصة مريم .

أما بالنسبة لقصة موسى ـ عليه السلام ـ فقد قال ـ سبحانه ـ : « وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . . ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور اد نادينا . . . . » [سورة القصص : الأيات ٤٤ ـ ٤٦]

أى : لم تكن يا محمد حاضرا وقت أن كلفنا أخاك موسى بحمل رسالتنا ، وكان ذلك عند الجانب الغربى لجبل الطور ، ولم تكن ـ أيضا ـ من المشاهدين لما أوحيناه اليه ، ولكنا أخبرناك بذلك بعد أن خلت بينك وبين موسى أزمان طويلة .

ولم تكن ـ أيضا ـ مقيما فى أهل مدين ، وقت أن حدث ما حدث بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين الشيخ الكبير وابنتيه من محاورات . . .

ولم تكن ـ كذلك ـ بجانب جبل الطور وقت أن نادينا أخاك موسى ، وأنزلنا اليه التوراة لتكون هداية ونورا لقومه .

فالمقصود بهذه الأيات الكريمة بيان أن هذا القران من عند الله ـ تعالى ـ ، وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن عالما بتلك الأحداث السابقة ،

وانما أخبره الله ـ تعالى ـ بها عن طريق قرآنه الكريم ، ووحيه الصادق الأمين .



وأما بالنسبة لقصة مريم ، فقد قال ـ سبحانه ـ خلالها : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليه ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون » [سورة ال عمران : الآية ٤٤]

أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك ـ يا محمد ـ فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران ، وما قاله ـ زكريا ، وما قالته الملائكة لمريم .

ذلك كله من أخبار الغيب التى ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ، وانما يعلمها الله وحده وأنت ما كنت حاضرا مع زكريا ـ عليه السلام ـ ومع الذين نافسوه فى كفالة مريم ، واقترعوا على ذلك فكانت كفالتها من نصيب زكريا ـ عليه السلام ـ، ومن الواضح أن المقصود بهذه الآية الكريمة ، وما يشبهها من آيات كثيرة ، اقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، وأن ما اشتمل عليه من قصص السابقين لم يكن للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علم به ، ولم يكن ـ أيضا ـ لغيره علم صحيح به .

فجاء القرآن الكريم بهذه القصص ، وحكاها بالحق والصدق ، لتكون عبرة وعظة للناس . .

قال ـ تعالى ـ : « ان هذا لهو القصص الحق ، وما من اله الا الله ، وان الله لهو العزيز الحكيم » [آل عمران : الآية ٦٢]

وقال سبحانه ـ : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » [سورة الكهف : ١٢]

وقال ـ عز وجل ـ : « فلنقصنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين » [سورة الأعراف : ٧]



جـ ـ كذلك من أهداف القصة فى القرآن الكريم : تثبيت فؤاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتسليته عما أصابه من قومه ، وتبشيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن العاقبة الطيبة ستكون له ولأصحابه . . أما تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، فنراه فى آيات كثيرة :

منها قوله ـ تعالى ـ : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » [سورة هود : الآية ١٢٠]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة فى أواخر سورة من سور القرآن الكريم الزاخرة بقصص الأنبياء مع أقوامهم وهى سورة هود ـ عليه السلام .

فقد اشتملت هذه السورة على قصة نوح مع قومه ، وقصة هود مع قومه ، وقصة صالح ولوط وشعيب مع أقوامهم ، وقصة ابراهيم مع الملائكة الذين جاءوا يبشرونه بابنه اسحاق ، كما اشتملت على جانب من قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ونخبرك عنه : المقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك ، عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق الى الناس . .

ولقد جاءك ـ يا محمد ـ فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن ، الحق الثابت المطابق للواقع ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما التسلية عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، والتسرية عن قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته الى الاقتداء بهم فى صبرهم . . فكل ذلك نراه فى آيات كثيرة منها قوله ـ سبحانه ـ : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » [سورة الذاريات : الآيات من ٥٢ : ٥٥]

وقد جاءت هذه الآيات بعد حديث مركز عن جانب من قصة ابراهيم وموسى وهود وصالح ونوح ـ عليهم الصلاة والسلام .

والمعنى : نحن نخبرك يا محمد بأنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من نبى أو رسول ، يدعوهم الى عبادتنا وطاعتنا ، الا وقالوا له ـ كما قال قومك فى شأنك ـ هذا الذى يدعى الرسالة أو النبوة ساحر أو مجنون .

والمقصود بالآية الكريمة : تسلية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه من مشركى قريش ، اذ بين له ـ سبحانه ـ أن ما أصابه قد أصاب الرسل من

قبله ، والمصيبة اذا عمت خفت .

ثم أضاف ـ سبحانه ـ الى هذه التسلية تسلية أخرى فقال : « أتواصوْا به » ؟

أى : أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم ، أنت ـ أيها الرسول ـ ساحر أو مجنون !

« وقوله ـ سبحانه ـ: « بل هم قوم طاغون » : إضراب عن تواصيهم اضراب إبطال ، لأنهم لم يجمعهم زمان واحد أو مكان واحد ، حتى يوصى بعضهم بعضا ، وانما الذى جمعهم تشابه القلوب ، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : هل وصّى بعضهم بعضا بهذا القول القبيح ؟ كلا لم يوص بعضهم بعضا ، لأنهم لم يتلاقوا ، وانما تشابهت قلوبهم ، فاتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر .

ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله ـ تعالى ـ : « فتول عنهم فما أنت بملوم » .

أى : فأعرض عنهم ـ أيها الرسول الكريم ـ وسر فى طريقك دون مبالاة بمكرهم وسفاهتهم ، فما أنت بملوم على الاعراض عنهم ، وما أنت بمعاقب منا على ترك مجادلتهم . . .

وداوم على التذكير والتبشير والانذار مهما تقول المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وآداب حكيمة .. ينفع المؤمنين .

وشبيه بهذه الآيات فى تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه من أذى ، قوله ـ تعالى ـ : « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ، وكُذِّب موسى ، فأمليتُ للكافرين ثم أخذتُهم فكيف كان نكير » [الحج : ٤٢ ـ ٤٤]

وأما دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الاقتداء بإخوانه الأنبياء السابقين فى صبرهم ، فنراه فى آيات متعددة . . منها قوله ـ سبحانه ـ : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِهْ . . . » [الأنعام : ٩٠]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الآيات السابقة عليها أسماء ثمانية عشر نبيا ، ثم أمره بالاقتداء بهم فقال : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده

أى : أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك ـ يا محمد ، هم الذين هديناهم الى الحق ، والى الطريق المستقيم فبطريقتهم فى الايمان بالله ، وفى ثباتهم على الحق ، كن مقتديا ومتأسيا .

وأما تبشيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريق قصص الأنبياء السابقين بأن النصر سيكون له ولأتباعه ، فنراه فى آيات كثيرة :

منها قوله ـ تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » [الأنعام ٣٤]

أى : ولقد كذب الأقوام السابقون رسلا كثيرين جاءوا لهدايتهم ، فكان موقف هؤلاء الرسل من هذا التكذيب والأذى الصبر والثبات ، واستمروا على صبرهم وثباتهم حتى أتاهم نصرنا الذى اقتضته سنتنا وأحكامنا التى لا تتخلف .

ولقد جاءك ـ أيها الرسول الكريم ـ من أخبار اخوانك الأنبياء السابقين ، ما فيه العظات والعبر ، فعليك أن تستبشر بأن النصر سيكون لك ولأتباعك .

ومن الآيات التى بشرت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما كانت للأنبياء السابقين وأتباعهم قوله ـ تعالى ـ : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز » [سورة المجادلة : ٢١]

وقوله ـ سبحانه ـ : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون [سورة الصافات : الآيات ١٧١ ـ ١٧٣]

وقوله ـ تعالى ـ : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » [سورة غافر : الآية ٥١]



كذلك من أهداف القصة فى القرآن الكريم : الاعتبار والاتعاظ .

قال ـ تعالى ـ : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وهذه الآية الكريمة هى الآية الأخيرة التى ختم الله ـ تعالى ـ بها سورة يوسف ـ عليه السلام ـ ، التى اشتملت على أحسن القصص وأحكمه وأصدقه وأشده اثرا فى النفوس . . أى : لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام ، وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وآداب وارشادات .

وما كان هذا الذى قصصناه حديثا مختلقا أو كاذبا ، وانما هو حديث لحمته وسداه الصدق الذى لا يحوم حوله الكذب ، والتأييد لما صح من الكتب السابقة التى امتدت اليها أيدى الفاسقين بالتحريف والتبديل ، والتفصيل والتوضيح للشرائع السابقة ، والهداية والرحمة لقوم يؤمنون به ، ويعملون بما فيه من أمر أو نهى .

والعبر والعظات التى نأخذها من قصص القرآن الكريم ، لها صور شتى منها : بيان حسن عاقبة المؤمنين ، الذين ثبتوا على الحق ، وابتعدوا عن الباطل ، وتابوا الى الله ـ تعالى ـ توبة صادقة ، وشكروا الله ـ تعالى ـ على نعمه ، بأن استعملوها فيما يرضيه لا فيما يسخطه .



ونرى نماذج لذلك فى قصة سليمان عليه السلام الذى آتاه الله ـ تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فلم يبطره هذا الملك ، ولم يشغله عن ذكر الله ـ تعالى ـ بل قال ـ كما حكى القرآن عنه « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » .

ونرى نماذج لذلك فى قصة ذى القرنين ، الذى مكن الله ـ تعالى ـ له فى الأرض ، فاستعمل ما آتاه الله من قوة فى الخير لا فى الشر ، وفى الاصلاح لا فى الافساد .

ونرى نماذج لذلك فى قصة أصحاب الكهف ، الذين آمنوا بربهم ، وزادهم الله ـ تعالى ـ ايمانا على ايمانهم ، بسبب ثباتهم على الحق .

نرى نماذج لذلك فى قصة قوم يونس ـ عليه السلام ـ الذين استجابوا لدعوة الحق ، وصدقوا نبيهم فيما أخبرهم به ، وأخلصوا دينهم لله ـ تعالى .

قال تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » [سورة يونس : الآية ٩٨] .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون الى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من العذاب ، كما نجا منه قوم يونس ـ عليه السلام ـ بسبب ندمهم على ما فرط منهم ، وايمانهم ايمانا صادقا ، وتوبتهم توبة نصوحا ، فعاشوا آمنين الى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا . .

ومنها : بيان سوء عاقبة المكذبين ، الذين أصروا على كفرهم ، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم ، واستحبوا العمى على الهدى ، وجحدوا نعم الله ـ تعالى ـ واستعملوها فى المعاصى لا فى الطاعات .

ونرى نماذج لذلك فى قصة قارون الذى آتاه الله ـ تعالى ـ من النعم ما آتاه ، فلم يشكر الله ـ تعالى ـ على نعمه ، بل قال بكل غرور وصلف : « انما أوتيته على علم عندى » .

كما نرى نماذج لذلك فى قصة أهل سبأ الذين قال الله ـ تعالى ـ فى شأنهم : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور » [سورة سبأ : الآيات : ١٥ ـ ١٧]

ولفظ « سبأ » فى الأصل : اسم لرجل ينتهى نسبه إلى أول ملك من ملوك اليمن ، والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة باسمه ، وكانوا يسكنون بمأرب على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء .

والمعنى : لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم ، علامة واضحة على فضل الله ـ تعالى ـ عليهم ، حيث جعل لهم ـ سبحانه ـ بستانين أحدهما عن يمين مساكنهم والثانى عن شمالها . . وقال الله ـ تعالى ـ لهم على ألسنة الصالحين منهم : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له » نعمه ، فأنتم تسكنون فى بلدة طيبة ، فيها كل ما تحتاجونه ، وقد منحها لكم الله الرحيم بكم ، الغفور

لذنوبكم ، فاشكروه على ذلك .

« فأعرضوا » أى : فأعرضوا عن نصح الناصحين ، وجحدوا نعم الله ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسل الله ـ تعالى ـ عليهم السيل المدمر ، وتحولت البساتين اليانعة الى أماكن ليس فيها سوى الثمار والأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

هذا الذى فعلناه بهم ، سببه جحودهم وبطرهم ، ومن سنتنا أننا لا نعاقب بهذا العقاب الرادع الا من جحد نعمنا ، وفسق عن أمرنا .



والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرا من قصص الجاحدين ، ثم بين لنا سوء مصيرهم .

ومن ذلك أنه ـ سبحانه ـ بعد أن ذكر لنا جانبا من قصص نوح وابراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وهود ، وصالح وموسى . . . مع أقوامهم ، عقب على ذلك بقوله ـ تعالى ـ: « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » [العنكبوت : ٤٠] أى : فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وابراهيم ولوط . . . أخذناه وأهلكناه ، بسبب ذنوبه التى أصر عليها ولم يرجع عنها .

فمنهم من أرسلنا عليه « حاصبا » أى ريحا شديدة رمته بالحصاة كقوم لوط ـ عليه السلام ـ

ومنهم من أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب ـ عليهما السلام ـ

ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون .

ومنهم من أغرقناه كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه .

وما كان الله ـ تعالى ـ مريدا لظلمهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وأوردوها موارد المهالك ، بسبب اصرارهم على كفرهم وجحودهم .



هذه بعض الأهداف والمقاصد التى من أجلها ساق القرآن ما ساق من قصص ، امتاز بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه .

وهناك أهداف أخرى ، يستنبطها كل ذى عقل سليم ، وما ذكرناه هو قليل من كثير ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .





فى ضوء السنة النبوية :

□ معنى ليلة القدر..
□ ماذا صنع الخصام.. فى هذه الليلة ؟
□ ليلة .. لها علامات ومواقيت..
□ أرجى الليالى.. عند الجمهور ..
□ ليلة القرآن.. والمجتمع العظيم..

يكتب هذا الفصل :

د. أحمد عمر هاشم



معنى ليلة القدر

يرى بعض العلماء أن معنى القدْر الذى أضيفت اليه الليلة هو التعظيم ، كقول الله سبحانه وتعالى : « وما قدروا الله حق قدره » فهى ذات قدر وتعظيم لما نزل فيها من القرآن الكريم . . أو أن العظمة والقدر لما يحدث فيها من نزول الملائكة ، وأيضا لما ينزل فى هذه الليلة من رحمات الله تعالى وبركاته وغفرانه وفيوضاته ، أو أن الذى يحييها ، يصبح ذا قدر وشرف ، ومنزلة كريمة .

وقال البعض . . القدر هنا التضييق ، كقول الله تعالى : « ومن قدر عليه رزقه » والمراد بالتضييق اخفاء الليلة وعدم تعيينها . . أو لأن الأرض تضيق فيها عن الملائكة ، أو أن القدر فيها بمعنى القدر ، أى أنه يقدر فيها أحكام تلك السنة وما يقضى الله به على عباده ، وذلك لقول الله عز وجل : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ولقيام ليلة القدر فضل وافر ، لأن الله تعالى مادام قد جعلها خيرا من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، فهذا يفيد أن العبادة فيها تكون أعظم شأنا منها فى غيرها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »

والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان إيمانا » أى تصديقا بوعد الله تعالى بالثواب ، فقد وعد رب العزة بثواب الصائمين وتكفل به ، كما جاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو لى وأنا أجزى به » « واحتسابا » أى طلبا لوجه الله سبحانه وتعالى وثوابه وطلبا للأجر لا لشىء آخر من رياء أو نحوه .

والاحتساب من الحسب كالاعتداد من العدد ، وإنما قيل لمن ينوى بعمله وجه الله : « احتسبه » ، لأن له حينئذ أن يعتد عمله ، فجعل فى حال مباشرة الفعل كأنه معتد به .

وفى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (. . غفر له ما تقدم من ذنبه » ما يفيد الاطلاق فيشمل الصغائر والكبائر . والمعروف أنه يختص بالصغائر ، أما الكبائر فلا تغفر الا بالتوبة النصوح بشروطها وهى : الندم على ما فات ، والعزم

على عدم العودة والاقلاع عن الذنب ، ورد الحقوق لأصحابها .

وفى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لجزاء الصائم بغفران الله له ما تقدم من ذنبه ، قيّد هذا الجزاء بأن صيامه (إيمانا واحتسابا) ، لينفى عن ساحة الصائم الرياء وحب الظهور وغير ذلك من الدواعى التى تقلل ثواب العبادة ، بل أحيانا تحبطها ، وليكون الصائم مخلصا فى عبادته ، وصادقا فيها ، ومقبلا بها على ربه سبحانه وتعالى قاصدا بها وجه الله تعالى وحده لا شريك له كما قال الله تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

وهذا الجزاء أيضا ، وهو غفران الذنوب ، يكون لمن أقام ليلة القدر إيمانا واحتسابا كذلك ، وتكون إقامة ليلة القدر بأداء صلاة القيام فيها ، وهى صلاة التراويح ، وبقراءة القرآن ، والتهجد والذكر والدعاء .

ولما كانت ليلة القدر غير محددة ولا معينة بل هى فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، وفى الوتر من العشر الأواخر . ويتناول الغفران الذنوب الصغيرة ، وقال الامام النووى : المعروف أنه يختص بالصغائر ، وبه جزم امام الحرمين . ويجوز أن يخفف من الكبائر اذا لم يصادف صغيرة .

وعند الامام النسائى (ما تقدم من ذنبه وما تأخر) ، ولكن كيف تغفر الذنوب المتأخرة التى لم تفعل بعد ؟ .

والجواب على هذا هو كما روى فى شأن أهل بدر : اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم » .

ومحصل الجواب أنه قيل : انه كناية عن حفظهم من الكبائر فلا تقع ، وقيل معناه : أن ذنوبهم تقع مغفورة .



وهل يحصل الثواب المترتب على ليلة القدر لمن أقامها ، أو يتوقف ذلك على كشفها له ؟.

جماعة من العلماء منهم الطبرى وغيره يقولون : ان الثواب المترتب على ليلة القدر يحصل لمن اتفق له قيامها بالعبادة ، وان لم يظهر له شىء ، ولا يتوقف الفضل الحاصل له على كشفها أو ظهور شىء من العلامات .

ماذا صنع الخصام .. فى ليلة القدر؟

حدث ان تخاصم رجلان فكانت خصومتهما سببا لرفع معرفة ليلة القدر . . فكيف كان ذلك ؟

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر. فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيرا لكم فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة .

إن ليلة القدر لم ترفع بسبب الملاحاة ، واما رفع تحديد معرفتها بدليل قوله : « التمسوها » .

وينبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن رفعها يكون خيرا بقوله « وعسى أن يكون خيرا لكم » يريد بذلك بيان أن إخفاءها يستدعى قيام الشهر كله أو العشر الاواخر كلها بخلاف ما لو تحدد وقتها .

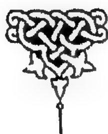
ومعنى تلاحى رجلان : أى تخاصما وتنازعا ، وفى رواية أخرى : «فجاء رجلان.. يختصمان معهما الشيطان » .

وذكر الامام الحافظ ابن حجر فى شرحه ما استنبطه السبكى الكبير من هذه القصة : استحباب كتمان ليلة القدر لمن رآها .

قال : ووجه الدلالة أن الله قدر لنبيه أنه لم يخبر بها ، والخير كله فيما قدر له ، فيستحب اتباعه فى ذلك .

قال : والحكمة فيه أنها كرامة ينبغى كتمانها بلا خلاف بين أهل الطريق من جهة رؤية النفس فلا يأمن السلب ، ومن جهة ألا يأمن الرياء ، ومن جهة الأدب فلا يتشاغل عن الشكر لله بالنظر اليها وذكرها للناس ، ومن جهة أنه لا يأمن الحسد فيوقع غيره فى المحظور ، ويستأنس له . يقول يعقوب عليه السلام : « يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك » .

واذا كانت الملاحاة سببا لرفع تعيينها ، والخصومات تمنع الخير ، فان واجب المسلمين أن يكونوا متحابين متآلفين يحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ومن كانت بينه وبين أخيه المسلم خصومة فليبادر بالصلح ، ومن كانت بينه وبين أحد أرحامه قطيعه فعليه أن يقوم بصلة رحمه ، وألا يترك الناس للخصومات تأكل العلاقات وتدمر وشائج الود والألفة فيما بينهم ، فان الخير يرتفع من الأرض بسبب الخصومات والخلافات ، وان الخير والبركة تنتشر فى الأرض حين يتراحم العباد ويتآلفون « الراحمون يرحمهم الرحمن » .



ليلة .. لها علامات ومواقيت !

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجالا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أُرُوا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان متحريها فليتحرها فى السبع الأواخر » .

لليلة القدر منزلة جليلة فى الاسلام ، فهى خير من ألف شهر ، وفيها تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن الله سبحانه وتعالى من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر .

ولم يشأ الله سبحانه أن يحدد ميقات ليلة القدر تحديدا دقيقا واضحا حتى لا يتكل الناس وانما أخفى الله تعالى وقتها ليقوم المسلمون باحياء اكبر وقت ممكن من أيام رمضان ولياليه ، وذلك جارٍ فى كثير من الأمور ، فقد أخفى الله تعالى ساعة الموت ووقت انتهاء الأجل ، لتستمر الخشية من الله تعالى ، ويستمر المسلم فى طاعة ربه .

وفى قول الرسول صلى الله عليه عليه وسلم « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر » ما يوهم ظاهره التعارض مع رواية البخارى « أن ناسا أروا ليلة القدر فى السبع الأواخر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم التمسوها فى السبع الأواخر » ، فرواية مسلم أفادت تواطؤ رؤياهم على السبع ، ورواية البخارى أفادت أن منهم من رآها فى السبع ومنهم من رآها فى العشر ؟

ويجاب على هذا بأن المراد بالتواطؤ التوافق ، وهو أعم من أن يكون الحديث بلفظه أو بمعناه .

فالبخارى لم يلتزم فى رواية الحديث بلفظ التواطؤ ، وأفراد السبع داخلة فى العشر ، فلما رأى البعض أن ليلة القدر فى السبع ، ورأى الآخرون أنها فى العشر ، كانوا كأنهم قد توافقوا على السبع ، فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بتحريها فى السبع الأواخر . وذلك لتوافق الطائفتين على السبع .

وقد رأى بعض العلماء أن المراد بالسبع المطلوب تحرى ليلة القدر فيها هى السبع الأواخر من رمضان : وذلك لما ثبت عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اطلبوا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان فإن غلبتم فلا تغلبوا على البواقى » .

وما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التمسوها فى العشر الأواخر « يعنى ليلة القدر » فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقى » .

فهذا يدل على ترجيح الرأى القائل بأن ليلة القدر فى أواخر العشر .

ورأى بعض العلماء ، أن المراد بالسبع التى أولها ليلة الثانى والعشرين وآخرها ليلة الثامن والعشرين ، وذلك لما رواه البخارى وغيره عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، ليلة القدر فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى .

وبسبب اختلاف هذه الروايات وقع اختلاف كبير بين العلماء فى تحديد وقتها ، وذكروا آراء كثيرة تزيد على أربعين رأيا .

ولليلة القدر امارات وعلامات ، ومعظمها لا يكون إلا بعد مضى تلك الليلة .

ومن هذه العلامات طلوع الشمس على صفة معينة ، وهى أنها لاشعاع لها ، لما روى عن زر بن حبيش قال سمعت أُبَىَّ بن كعب يقول.وقيل له ان عبدالله بن مسعود يقول:من قام السنة أصاب ليلة القدر ـ فقال أُبىّ : والله الذى لا اله الا هو إنها لفى رمضان يحلف ما يستثنى ، والله انى لأعلم أى ليلة هى ؟ هى الليلة التى أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها ، هى ليلة سبع وعشرين وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لاشعاع لها » .

وروى ابن خزيمة من حديث ابن عباس مرفوعا « ليلة القدر طلقة ، لا حارة ولا باردة ، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة »

ولأحمد من حديث عبادة « لا حر فيها ولا برد وأنها ساكنة صاحية وقمرها ساطع » .

ويلاحظ أن هذه العلامات الأخيرة تكون أثناء الليلة ، وهذه الأمارات هى التى جاءت بها السنة الشريفة .

وليست ليلة القدر ـ كما يزعم البعض ـ كوكبا يضىء ، أو جائزة مادية يتلقفها صاحب الحظ ، وإنما ليلة القدر هى ليلة مباركة ذات مكانة جليلة ، ينبغى على المسلم أن يقيمها بسائر أنواع العبادات ، ولا مانع من ظهور بعض العلامات الدالة عليها .

وقال الطبرى : « فى إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر فى تلك الليلة للعيون ما لايظهر فى سائر السنة ، اذ لو كان حقا لم يخف على كل من قام ليالى السنة ، فضلا عن ليالى رمضان » .

وتعقبه ابن المنير بأنه لا ينبغى اطلاق القول بالتكذيب لذلك،بل يجوز أن يكون ذلك على سبيل الكرامة لمن شاء الله من عباده فيختص بها قوم ، دون قوم ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يحصر العلامة ، ولم ينف الكرامة .

قال : ومع ذلك فلا يعتقد أن ليلة القدر لا ينالها إلا من رأى الخوارق ، بل فضل الله تعالى واسع ، ورب قائم تلك الليلة لم يحصل منها الا على العبادة من غير رؤية خارق ، وآخر رأى الخوارق من غير عبادة ، والذى حصل على العبادة أفضل. والعبرة إنما هى بالاستقامة بخلاف الخارق ، فقد يقع كرامة وقد يقع فتنة .

وقيل ان المُطَّلع على ليلة القدر يرى كل شىء ساجدا . وقيل يرى الأنوار ساطعة فى كل مكان حتى فى المواضع المظلمة . وقيل يسمع سلاما أو خطابا من الملائكة . وقيل من علاماتها استجابة دعاء من وُفِّقَ لها » .



أرجى الليالى .. عند الجمهور

ولترجيح أنها ليلة السابع والعشرين وإيراد أهم علاماتها « هناك روايات عديدة » .

فقد روى الامام مسلم ـ بسنده ـ عن عبدة وعاصم بن أبى النجود سمعا زر بن حبيش يقول :

سألت أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه ، فقلت : « ان أخاك ابن مسعود يقول : من يقم الحول يصب ليلة القدر ؟

فقال رحمه الله : أراد ألا يتكل الناس ، أما انه قد علم أنها فى رمضان وأنها فى العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبع وعشرين ، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين . .

فقلت : بأى شىء تقول ذلك يا أبا المنذر ؟

قال : بالعلامة أو بالآية التى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تطلع يومئذ لاشعاع لها » .

وفى هذا بيان لما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من حرص أكيد على العبادات ، ومضاعفة الطاعات وما كانوا عليه من تحين أيام الخير والبركة وإحيائها بما ينبغى من الذكر والعبادة وسائر القربات ، مع هذا ، فانهم ما كانوا يتكلون على تلك الايام او بعض الليالى الفاضلة ، بل كانت جهودهم فى العبادة موزعة على سائر ايام السنة .

وفى هذا الحديث توضيح لما قاله عبدالله بن مسعود رضى الله عنه « من يقم الحول يصب ليلة القدر » أراد بهذا أن يقيم الناس الحول كله حتى لا يتكلوا على ليلة واحدة ويهملوا باقى أيام السنة من العبادات والطاعات . مع انه كان يعلم ان ليلة القدر فى شهر رمضان ، وانها ليلة سبع وعشرين وحلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين .

ومما ورد بشأن بعض علاماتها ما رواه أبوهريرة رضى الله عنه قال : تذاكرنا ليلة القدر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيكم يذكر حين طلع القمر وهو مثل شق جفنة » ؟

وفى هذا الحديث اشارة الى أن ليلة القدر انما تكون فى أواخر شهر رمضان ، لان القمر لا يكون كذلك عند طلوعه الا فى اواخر الشهر .

ومما ورد بشأنها كذلك عن عبدالله بن أنيس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أريت ليلة القدر ثم أنسيتها ، وأرانى صبحها أسجد فى ماء وطين . قال : فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف وان أثر الماء والطين على جبهته وانفه قال : وكان عبدالله ابن انيس يقول : ثلاث وعشرين . أى « ليلة ثلاث وعشرين » على حذف مضاف وهى لغة شاذة ، اما الرواية الاخرى فهى : «ثلاث وعشرون » .

وأرجح الاقوال انها فى الوتر من العشر الاواخر ، وأرجى الليالى عند الجمهور ليلة سبع وعشرين .

وقد روى عبدالرازق عن ابن عباس قال : دعا عمر اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا على أنها فى العشر الاواخر. قال ابن عباس : فقلت لعمر انى لأعلم وأظن أى ليلة هى. قال عمر : أى ليلة هى ؟

فقلت : سابعة تمضى أو سابعة تبقى من العشر الاواخر .

فقال : من أين علمت ذلك ؟

فقلت : خلق الله سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام ، والدهر يدور فى سبع ، والانسان خلق من سبع ، ويأكل من سبع ، وسجد على سبع ، والطواف والجمار وأشياء ذكرها .

فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له .

واهم ما ينبغى التنبيه اليه أنها ليلة ذات قدر وشرف ، على المسلم ان ينتهزها بالعبادة والا يحرم نفسه فيها من الدعاء ، ويكثر من قوله : « اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عنى » لما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله أرايت ان علمت أى لَيْلَةٍ لِيلَةَ القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولى « اللهم انك عفو تحب العفو فأعف عنى » .



وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » .

فالعبادة فيها خير من ألف شهر ، وأفضل الدعاء أن يسأل العبد ربه سبحانه العفو .

وقال الامام الصاوى فى تفسيره : وأحسن ما يُدّعَى به فى تلك الليلة العفو والعافية كما ورد .

وينبغى لمن شق عليه طول القيام أن يتخير ما ورد فى قراءته كثرة الثواب.كآية الكرسى وأواخر البقرة وسورة الاخلاص ويكثر من الاستغفار والصدقة ، وورد : من صلى المغرب والعشاء فى جماعة فقد أخذ بحظ وافر من ليلة القدر .

وورد من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام شطر الليل ، فاذا صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام شطره الآخر .

وورد : من قال لا اله الا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم .. ثلاث مرات كان كمن أدرك ليلة القدر .

وذلك حين يكون صادق القلب ، مخلص النية مقبلا على ربه طاهر الظاهر والباطن . انما يتقبل الله من المتقين .

ولاشك أن ليلة القدر هى ليلة قبول الدعاء . وفى ليلة القدر تتنزل ملائكة الله تعالى ، وتغشى رحمته العباد ، ويتقبل الله دعاء من دعاه ، فالسعيد من يطهر نفسه من الاحقاد ويخلص فى الاقبال على الله تعالى صلاة وتلاوة للقرآن وذكرا ودعاء واستغفارا .

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذ كان ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى » .

وليلة القدر هى من نفحات الله تعالى التى ينفع بها عباده المؤمنون « ان لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها »

والتعرض للنفحات يكون بالتوبة الصادقة والرجوع الى الله سبحانه وتعالى وكثرة الذكر والدعاء .

ليلة القرآن .. والمجتمع العظيم

اذا كانت ليلة القدر هى الليلة التى انزل فيها القرآن ، وتنزلت فيها ملائكة الرحمن ، من كل امر سلام هى حتى مطلع الفجر . فلنعلم أن فى ليلة نزول القرآن دعوة مؤكدة الى احيائها بالقرآن ، وفهم معانيه ، وتطبيق دعوته الى الحق والخير والسلام .

ومما لاشك فيه أن للقرآن الكريم منهجه فى بناء المجتمع الاسلامى الفاضل .

وللقرآن الكريم دعوته وهدايته الى أقوم السبل وأعظمها ، كما قال الله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

ودعوة القرآن الكريم الى بناء المجتمع المثالى لا تقتصر على ما فرضه من حدود على الجرائم والشرور .. لتنقية المجتمع منها فحسب ، ولا على النواهى والتحذيرات التى تحرم على المسلم ارتكاب الرذيلة أو فعل القبيح أو الأهمال فيما وجب عليه فقط ، كما لا تقتصر على ماشرعه الله تعالى من عبادات ومعاملات وجهاد لا غير .

ولا تقتصر كذلك على ما جاء من الفضائل او الاخلاق فى ذروتها كالايثار ، والاحسان الى من اساء وغير ذلك . . بل ان دعوة الاسلام تضمنت مع كل هذ وذاك « الأسوة الحسنة » التى تمثلت فى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وبلغ فيها اسمى الدرجات ، فلا يكفى للرائد والمعلم ان يلقى توجيهاته دون أ تكون اعماله وسلوكه مصوغة على أعلى المستويات فيما يأمر أو ينهى عنه .

والمعلوم ان فى الانسان فطرة خيرة كريمة ، ونزعة بشرية مقابلة ، وكل واحدة من هاتين تحاول اجتذاب الانسان الى صفها ، فمن زكى نفسه فقد أفلح . ومن اهملها فقد ضل ضلالا مبينا « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

ولكى يكون السلوك دائم النقاء ، موصول الخير ، مأمونا عليه من الانزلاق فى وحل المعصية ، والشرور ، جاءت توجيهات الاسلام لتخاطب الظاهر والباطن ، ولتستحث فى الانسان فطرته الطيبة وتحرك أشعتها مضيئة صوب الحق والخير .

ولا يجعل الاسلام الحساب على مجرد شكل العمل وصورته ، بل على روحه

ونية فاعله ، قال صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » وقال عليه الصلاة والسلام : « انما يبعث الناس على نياتهم » .

وهنا يتجلى ما يتضمنه الدين من بعث لقوى الخير الكامنة . واطفاء لنزعات الشر الطائشة فى داخل النفس الانسانية ، ان قوانين الدنيا قد يفلت البعض منها بحيلة ما ، فلا يقع تحت طائلة العقاب ، أما بالنسبة للقوانين الالهية فمهما اخفى العبد جريمته .. فلن تخفى على علام الغيوب الذى يعلم السر واخفى .

ولهذا كان الاسلام فى دعوته يجمع كل صفات الظاهر والباطن ويغرس فى النفس الانسانية روح المراقبة ومعانى الخير الكاملة .. وينقى القلب دائما ويجعله على صلة وثيقة بالله وبالناس .

وسنرى كيف نادى الكتاب العزيز والسنة الشريفة الى كل هذا ، وكيف كانت تقوى الله تعالى هى أهم الركائز ، وعلى ضوئها تنبثق كل الفضائل والاخلاق .

فلقد ارسى الاسلام قاعدة المثالية بالنسبة للأفراد والجماعات ، والأمم والشعوب ، وعلى ضوئها يقوم بناء المجتمع المثالى ، هذه القاعدة القرآنية هى قول الله تعالى : « أن أكرمكم عند الله اتقاكم » فالمجتمع المثالى : هو الذى جعل التقوى شعارا ، وطبقها سلوكا . فآتت ثمارها حقيقة .

وقد وضح القرآن الكريم سمات هذا المجتمع الرفيع ، وبين انه هو الذى يجعل القرآن هداه « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

ويرسم القرآن صورة هذا المجتمع المتكامل فى مبادئه ، بأنه صحيح العقيدة فى دينه ، متعاون فى معاشرته ، مهذب النفس فى سائر معاملاته وعلاقاته .

١ ـ أما صحة العقيدة : فتكون بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

٢ ـ واما تعاونه فى المعاشرة : فيكون بإيتاء المال ـ مع حبه له ـ لأصحاب الحقوق والمحتاجين .

فقد روى مسلم بسنده ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم اجرا ؟ فقال : « أمَا وأبيك لَتنبأنه : ان تَصَدَّق وانت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء ، ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » .

٣ ـ وأما تهذيب النفس فى سائر المعاملات والعلاقات : فيكون باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر فى كل الاحوال وفى اوقات الشدائد ، وعند لقاء العدو .

ان من يجمع هذه المبادىء فقد صار صادقا فى دينه ، واتباعه للحق وطلبه للبر ، وهو بحق تقى . . والمجتمع الذى يتسم بها هو المجتمع المثالى الفاضل ويجمع محسنين « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستغفرون » .

هذه المبادىء كلها تشير الى قول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى الباساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وفى موطن آخر من سورة « الذاريات » يصور القرآن الكريم صورة المجتمع المثالى بانه مجتمع تقى بلغ فى رقيه وتقاه الى درجة الاحسان التى أشار اليها الرسول صلى الله عيه وسلم بقوله : « ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك » . وقبل ان يذكر ملامح هذا المجتمع يبين جزاء اصحابه ، وما أعده الله تعالى من جنات وعيون . وما هم عليه من رضا تام ، وقبول حسن لما آتاهم ربهم ، فيقول الله تعالى : « ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالاسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ان درجة الاحسان التى أشارت اليها الآيات السابقة ، لهى أمان للمجتمع ، فوق ما لها من منزلة ، وما لأصحابها من أجر وافر عند الله ، هى أمان من الخوف والفزع والقلق النفسى ، وهى أمان من الحزن الذى يصاب به غير المحسنين فى أعمالهم وعباداتهم . قال تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وتفسر الآيات الشريفة درجة الاحسان فى التقوى والعمل ، بأنها ترقى بالمجتمع الى الدرجات العلا . .

١ ـ انهم يهجعون فى طائفة قليلة من الليل ، ويقضون سائر الليل فى العبادة .

٢ ـ ومع قلة هجوعهم ، وكثرة تهجدهم ينهضون فى الاسحار ويستغفرون

ربهم وكأنهم لم يقضوا الليل فى العبادات . . فهم يصلون فى الرقى بالعبادات من نوع الى آخر ولا يركنون لما قدموا من طاعة أو سهر وتهجد بل مع هذه الاجتهادات يكثرون من الاستغفار وكأنهم مذنبون .

٣ ـ ثم يقدمون بعد هذا الدليل على صدق الايمان ، واحسان الطاعة ، وذلك بالبذل والانفاق ولا يقصرون البذل والعطاء على السائل الذى يسأل ، بل يبذلون وينفقون على من يسأل ، كالمحروم وهو : المستجدى ، والمتعفف الذى يظنه بعض الناس غنيا ، لعدم سؤاله فيحرم الصدقة ، ومصداق ذلك فى موطن آخر ، قول الله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

واذا كان القرآن الكريم قد بين جزاء قيام الليل بهذه الصورة : « فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

فقد أكدت السنة الشريفة عظمة هذا الجزاء : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبوهريرة : اقرأوا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

وأما جزاء الاستغفار وثمرته : فواضح فى قوله الله تعالى : « فقلت استغفرو ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا »

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وأما فضل الانفاق وجزاؤه : فقد قال تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف اوإصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

وقال تعالى : « وما انفقتم من شىء فهو يخلفه » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن ملكا بباب من أبواب السماء يقول : من يقرض اليوم يجز غدا ، وملكا بباب آخر يقول : اللهم أعط منفقا خلفا وعجل لممسك تلفا » .

هذه العناصر الثلاثة : قيام الليل ، وعدم الاتكال على ذلك فيكثر من الاستغفار ، ثم اقامة البرهان على الصدق فى جميع الفضائل بالانفاق ، كما قال

الرسول صلى الله عليه وسلم : « . . والصدقة برهان » هذه كلها تشكل عناصر الاحسان الذى هو عنوان المجتمع المثالى الذى اخذ نفسه بتقوى الله تعالى والاحسان فى عباداته ومعاملاته .

والناس فى نظرهم للمثالية يختلفون ، وينقسمون الى قسمين :

احدهما : يراها فى حب الشهوات ، وهؤلاء هم حزب الشيطان وعشاق الدنيا الذين غرتهم الامانى وغرهم بالله الغرور .

والآخر : يراها فى تقوى الله تعالى ، وهؤلاء هم حزب الله « ألا ان حزب الله هم المفلحون » .

وقد بين القرآن الكريم ان القسم الثانى هو الذى على حق ، وهو الذى قد أعد له ربه جزاء عمله على نوعين :

الاول : جسمانى نفسى ، وهو الجنة والأزواج المطهرة .

والثانى : روحانى عقلى ، وهو رضوان الله سبحانه وتعالى .

ويصور القرآن الكريم النوعين من المجتمع فى قول الله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » .

ثم تبرز لنا الآيات الكريمة سمات هذا المجتمع العظيم : « الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار » .

انهم رتبوا طلب المغفرة على الايمان ، وابتهلوا الى الله بصدق ايمانهم ليغفر لهم .

كما انهم صابرون . والصبر ضياء ، وقد قال الله تعالى فى جزاء الصابرين : « انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » وقال تعالى : « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » وقال صلى الله عليه وسلم : « عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن، ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له، وان اصابته ضراء صبر، فكان خيرا له » .

ثم يصفهم بعد ذلك بالصدق ، والصدق يكون فى القول والعمل . وقد قال الله تعالى فى جزاء الصادقين : « والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمرة الصدق ونتيجته ، وعاقبة الكذب ونهايته : « ان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .
وحين يصفهم بالعبادة يصفهم بالمداومة عليها ، والحرص على روحها ولبابها لا على الشكل والمظهر فحسب ، فيصفهم « بالقانتين » .
وأما الصفتان التاليتان وهما : الانفاق ، والاستغفار ، فبعض المفسرين يرى أن المراد بالاستغفار هنا الصلاة وقت السحر .
وقد أمر الله تعالى عباده بالأخذ بأسباب المغفرة والجنة ، ووجههم الى المسارعة فى ذلك ، ولكن الأمر والتوجيه جاء بصيغة تقتضى تحقق هذا الجزاء العظيم الذى أعد لهم ، لانهم اتقوا ربهم حق تقاته ، وقدم الجزاء أولا ، ليبين انه المتكفل به ، والضامن له ، ثم ذكر ـ بعد ذلك ـ سماتهم وأوصافهم . . ثم يختم ببيان الجزاء ، ليوضح انه انما جاء وفق ايمانهم وعملهم ، لانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وليوضح ايضا انه مؤكد عند الله سبحانه وتعالى .
وفى معرض تعداد اوصاف المتقين الذين سموا فى اعمالهم الى مراقى الفلاح ، والذين كونوا بمثاليتهم الفذة أرقى مجتمع انسانى على ظهر الارض .وفى معرض تعداد الأوصاف ، ذكر نوعين من الاعمال ، عليهما تدور سعادة الامة التى ينتمون اليها كالانفاق ، والسعادة النفسية للعامل ذاته . . هذان النوعان هما :
١ ـ العمل البدنى كالانفاق .
٢ ـ والعمل النفسى كعدم الإضرار .
هذه الملامح السابقة يصورها قول الله تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .
وهكذا تطلعنا هذه الآيات الكريمة على خمس سمات اذا تحققت تكاملت بها صورة المجتمع المثالى : اولا : « الذين ينفقون فى السراء والضراء » أى فى حالة الرخاء وفى حالة الشدة ، والسراء من السرور ، أى فى الحالة السارة التى

يستشعر فيها الانسان السعة واليسر. و « الضراء » : من الضرر أى فى الحالة الضارة التى يستشعر فيها الانسان الضيق والعسر . وقد رُوِيَ عن ابن عباس تفسيرهما باليسر والعسر .

وهنا لفتة الهية حكيمة . حيث بدأ صفات المتقين بالانفاق ، وذلك لسببين :

١ ـ لمقابلته بالربا الذى نهى عنه فى الآية السابقة فى قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . . » .

فاذا كان فى الربا استغلال من الغنى للفقير ، وانتهاز لحاجته وفاقته لأكل ماله بغير وجه حق . . فإن فى الصدقة مساعدة للفقير وعونا له ، لا يبتغى من الفقير جزاء ولاشكورا .

٢ ـ الانفاق فى جميع الحالات ـ اليسرْ وَالعسر ـ دلالة على صدق الايمان ، وبرهان على قوة اليقين . . وهذا هو شأن المتقين ، لا يجرهم اليسر الى البطر ، ولا يوقعهم العسر فى القنوط ، فهم لا يقتصرون فى تعاونهم على حالة الرخاء والنعمة ، بل هم فى الحالين سواء ، فلما كان الانفاق ادل على التقوى ، واعظم نفعا للمجتمع الانسانى من سائر الاعمال الاخرى . . استهلت الآية الشريفة موكب المتقين بالانفاق .

ثانيا : « والكاظمين الغيظ » وهم الذين يحبسون غيظ نفوسهم بالصبر عندما يهضم لهم حق من الحقوق مادية كانت أو معنوية ، وهذه الصفة تقتضى ضبط النفس وكبح جماحها ، حتى لا تنزلق فى الشر فتكون فتنة .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم درجة كظم الغيظ وثمرته فى قوله « من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء » .

ثالثا : « والعافين عن الناس » وهنا يرقى الاسلام بنفس المسلم ، فبعد أن أطفأ جذوة الشر التى تكاد تندلع بها النفس الانسانية ، وذلك بكظم الغيظ ، انتقل بالمسلم الى درجة اسمى ، فيها معالجة للنفس وارتفاع الى مرتبة أسمى من السابقة ، فقد يكظم الانسان غيظه ولا يزال فى قلبه شىء من الضغينة ، أما العفو فيمسح ما بقى من شر حتى يعود القلب نقيا .

وعن عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : تحلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك وتصل من قطعك » .

رابعا : « والله يحب المحسنين » . واذا كان العفو منزلة فوق العدل كان ـ عند بعض العلماء ـ احسانا . وعلى هذا فمعنى « والله يحب المحسنين » أى الذين احسنوا فى معاملتهم وعفوهم .

ولكننى أرى أن قوله تعالى : « والله يحب المحسنين » صفة رابعة ، زائدة على ما سبق ، وقد جاء فى صيغة تبرزه بكونه محبوبا عند الله سبحانه ، فهى درجة زائدة بلغ أصحابها فى مثاليتهم مدى عظيما ، بحيث لا يكتفون بكظم الغيظ والعفو فحسب ، بل انهم يحسنون الى من أساء اليهم .

روى ان بعض السلف الصالح غاظه غلام له غيظا شديدا فهم بالانتقام منه فقال الغلام : « والكاظمين الغيظ » فقال : كظمت غيظى . قال الغلام : « والعافين عن الناس » قال : عفوت عنك . قال : « والله يحب المحسنين » قال : اذهب فأنت حر لوجه الله .

خامسا : « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم »

وهذه الصفة ، تكشف عن الطبيعة البشرية وانها عرضة للخطأ والزلل ، فالمسلم التقى اذا اقترف معصية فى حالة ضعف نفسى يبادر بالرجوع الى ربه مستغفرا تائبا . وان سماحة الاسلام لا تدع أمثال هذا النمط فى مؤخرة القافلة ، بل ترفعهم الى مصاف المتقين ما داموا قد ذكروا ربهم ، واستغفروه ، ولم يصروا على ما فعلوا .

ومما سبق يمكننا ان نبرز هنا سمات هذا المجتمع المثالى لتكون بمثابة الاضواء الكاشفة للأمة الاسلامية حتى ترسم الخطى الصحيحة التى أشار اليها الاسلام فى القرآن والسنة ، وهذه السمات منها ما يتعلق بصحة العقيدة : وهذا عن طريق الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقضاء والقدر . . وما يستلزمه من عبادات ومعاملات .

ب ـ التعاون والتكافل الاجتماعى ، هذا عن طريق التعاون والإنفاق فى جميع الاحوال .

تهذيب النفس الانسانية . وترويضها ، وكبح جماحها وفتح سبل الخير والحق لها .

جـ ـ هذا عن طريق : الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج للمستطيع ، الوفاء بالعهد ، الصبر فى جميع الأحوال .

د ـ سموهم فى العبادة والقرب من الله . . وهذا عن طريق : قيام الليل ، الاستغفار فى الاسحار .



الاعجاز القرآنى

- □ الإعجــاز النفســى .. كيــف ؟
- □ الإعجـاز العـلمى .. وأمثـلـة شـتى !
- □ الإعجـاز البيـانى .. وهـذا التفـرد !!
- □ القـرآن مدهــش .. من أى وجـه كان !

يكتب هذا الفصل

الشيخ محمد الغـزالى



الاعجــاز النفســـى .. كيــف ؟

احتوى القرآن على شرائع الإسلام وأصول دعوته .

لكن هذه الشرائع والأصول لا تستغرق جزءاً كبيراً منه ، فإن الإسلام دين يسير الرسالة ، محدود التكاليف ، وإنما كثرت السور واستبحرت الآيات لكى يمكن عرض الحقائق الدينية فى أسلوب عامر بالإقناع ، فياض بالأدلة !

نعم تستطيع حصر أحكام القرآن ، وزبدة عقائده وتعاليمه فى بضع صفحات . وبضع صفحات ليست شيئاً هيناً ، إنها تتسع لحشد كبير من المعارف الثمينة .

بيد أن الوحى الإلهى ليس مجموعة من العلوم رصّت فى كتاب ثم قدمت للناس . إن عماد هذا الوحى - بعد تقرير الحق الذى جاء به - هو : كيف يغرس هذا الحق فى النفوس ، وكيف تفتح أقطارها له ، وكيف تبقى عليه وإن تعرضت للفتن ، وكيف يبقى فيها وإن زاحمه الباطل وضيق عليه الخناق بصنوف المحرجات .. .. !!!

إن وحدانيه الله جل جلاله أم العقائد الإسلامية ، ومبدأ التوحيد لا يحتاج فى بيانه الى كراسات أو مجلدات ، بل كلمة التوحيد تكتب فى سطر وتنطق فى لحظات ، فهل كذلك الأمر فى إشراب القلوب حقيقة التوحيد ؟ وتتبع مسالك الإنسان لنفى الشرك عنها ، وإلزامها الصراط المستقيم ؟ وسرد تاريخ الأمم الأولى ، وكيف اجتالتها الشياطين عن الفطرة ، فاتخذت من دون الله أوثاناً وكيف لقيت المصير الأسود الذى يجب أن تتعظ به الأجيال الجديدة بعد بو القرون السابقة ؟ . .

الأمر هنا يحتاج الى إفاضة واستطراد حتى يستطاع التغلب على طبيعة الإنساد المعاندة ، وإغلاق كل منفذ يمكن أن تهرب منه .

ولذلك يقول الله عز وجل :

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا »

قد يجد فى القرآن حقيقة علمية مفردة ، ولكن هذه الحقيقة تظهر فى ألف ثوب ، وتتوزع تحت عناوين شتى ، كما تذوق السكر فى عشرات من الطعوم والفواكه ، وهذا التكرار مقصود ، وإن لم تزد به الحقيقة العلمية فى مفهومها .

ذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط ، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها ،

والتقاط آخر ما تختلقه اللجاجة من شبهات وتعلات ، ثم الكر عليها بالحجج الدامغة حتى تبقى النفس وليس أمامها مفر من الخضوع للحق والاستكانة لله .

وعندى أن قدراً كبيراً من إعجاز القرآن الكريم يرجع الى هذا .

فما أظن إمْرَأً سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به .

قد تقول : وَلِمَ يتأثر به ؟ والجواب أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية ـ من ناحية الحقائق الدينية ـ إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه .

ما أكثر ما يفر المرء من نفسه ، وما أكثر الذين يمضون فى سبل الحياة هائمين على وجوههم ، ماتمسكهم بالدنيا إلا ضرورات المادة فحسب .

إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب الى أولئك جميعاً ، وكأنه عرف ضائقة كل ذى ضيق ، وزلة كل ذى زلل ، ثم تكفل بإزاحتها كلها ، كما يعرف الراعى أين تاهت خرافه ، فهو يجمعها من هنا وهناك ، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها .

وذاك سر التعميم فى قول الله عز وجل : «ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل» .

حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله .

إنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل ، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية .

أو مثلما يقف الخلى أمام خطيب يهْدِر بالصدق ، ويحدث العميان عن اليقين الذى يرى ولا يرون .

إنه قد يرجع مستهزئاً ، ولكنه يرجع بغير النفس التى بها جاء .

والمنكرون من هذا النوع لا يطعنون فى التأثير النفسانى للقرآن الكريم .

كما أن العميان لا يطعنون فى قيمة الاشعة ، ولذا يقول عز وجل : «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد» .

***

وتصريف الأمثال للناس ترددهم بين صنوف المعانى الرائعة .

قال العلماء فى شرح الآية : (ولقد صرفنا فى هذا القران للناس من كل

مثل . .) رددنا وكررنا من كل معنى كالمثل فى غرابته وحسنه ، أو سقنا لهم وجوه العبر والأحكام والوعد والوعيد ، والقصص وغير ذلك .

والمقصود أن القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التى تقهر تفوقه فى الجدل ، أى بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة ، وتسليط البرهان القاهر على كل حجة .

فالنكوص عن الإيمان بعد قراءة القرآن يكون كفراً عن تجاهل لا عن جهل وعن تقصير لا عن قصور .

والجدل آفة نفسية وعقلية معاً ، والنشاط الذهنى للمجادل يمده حراك نفسى خفى قلما يهدأ بسهولة .

وجماهير البشر لديها من أسباب الجدل ما يفوق الحصر ، ذلك أنهم يرتبطون بما الفوا أنفسهم عليه من أديان وآراء ومذاهب ارتباطاً شديداً ، ويصعب عليهم الإحساس بأنهم وآباءهم كانوا فى ضلال ـ مثلا ـ فإذا جاءت رسالة عامة تمزق الغشاوات عن العيون ، وتكشف للناس ما لم يكونوا يعرفون ، فلا تستغربن ما تلقى من الإنكار والتوقف ، أو التكذيب والمعارضة .

وأسلوب القرآن فى استلال الجفوة من النفس ، وإلقاء الصواب فى الفكر ، أوفى على الغاية فى هذا المضمار .

ذلك أنه لوَّن حديثه للسامعين تلويناً يمزج بين إيقاظ العقل والضمير معاً ، ثم تابع سوقه متابعة إن أفلت المرء منها أولا لم يفلت آخراً .

كما يصاب الهدف حتما على دقة المرمى ، وموالاة التصويب .

وذلك هو تصريف الأمثال للناس ، إنه إحاطة الإنسان بسلسلة من المغريات المنوعة لا معدى له من الركون الى إحداها .

او معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى ، لابد أن يستسلم القفل عند واحد منها .

وتراكيب القرآن ـ التى تنتهى حتما بهذه النتيجة ـ تستحق التأمل الطويل .

ولسنا هنا بصدد الكلام عن بلاغتها ، بل بصدد البحث عن المعانى التى تألفت منها ، فكان من اجتماعها هذا الأثر الساحر .

وهاك مثلا من مئات الأمثلة فى هذا الشأن ، ترى فيه حديثاً عن مظاهر الكون ، ثم إيماء ، الى مشاهد القيامة ، ثم تحذيراً للإنسان من الغفلة ، ثم دفعاً قوياً الى الطريق السوى لابد فيه من الجمع بين صلاح العقيدة وسلامة الحق وحسن العبادة ودقة المعاملة للناس أجمعين .

«كلا والقمر والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ، كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين» .

إننى أقرأ هذه الآيات فأحس عملها القوى فى أرجاء نفسى ، غير أننى لا أدرى سر هذا العمل القوى !

الكلمات ومعانيها من جنس ما نعرف ، أما آثارها فلسنا نعرف مأتاها ، وإن تشبثت بأنفسنا الى أبعد الحدود .

والشىء قد يكون فى إحدى حالاته مألوفاً لا يثير انتباها ، فإذا أظهر هذا الشىء نفسه فى أوضاع أخرى اكتنفته معان شتى !!

ألا ترى الزخرفة فى فن الرسم تتكون من «وحدة» معينة ؟ لو رأيت صورتها مفردة ما لفتت نظرك ، فإذا كررها الرسام بطرق مختلفة برزت معالم الجمال فى أنواع من الزخارف تسحر الألباب .

ثم إن إلفك الشىء قد يخفى ما فيه من أسرار ، ويصرفك عن اكتشافها .

وكثيراً ما تتلو آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه فى الطريق ، ملامح تراها قد تكون دميمة ، وقد تكون وسيمة ، تمر أشكالها بالعين ، فما ثبت على أحدها إلا قليلا وفى ذهول.

لأن المرء مشغول بشأنه الخاص عن دراسة القدرة العليا فى نسج هذه العيون ، وغرس هذه الرؤوس ، وصوغ تلك الشفاة ، وإحكام ما تنفرج عنه من أسنان ، وما تؤدى إليه من أجهزة دوارة لا تقف لحظة .

إننا نقرأ القرآن فيحجبنا ابتداء عن رؤية إعجازه . إنه كلام من جنس ما نعرف ، وحروف من جنس ما ننطق ، فنمضى فى القراءة دون حس كامل بالحقيقة الكبيرة .

إلا أن طبيعة هذا القرآن لا تلبث أن تقهر برودة الإلف ، وطول المعرفة ، فإذا كتاب تتعرى أمامه النفوس ، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها ، وتنزعج من ذهولها وركودها ، وتجد نفسها أمام الله جل شأنه يحيط بها ويناقشها ويعلمها ويؤدبها ، فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلى العميق إلا أن تخشع وتصيخ .

***

وكما قهر القرآن نوازع الجدل فى الإنسان وسَكَّن لجاجته . تغلب على مشاعر الملل فيه ، وأمده بنشاط لا ينفد.

والجدل غير الملل ، هذا تحرك ذهنى قد يجسم الأوهام ، ويحولها الى حقائق ، وذاك موات عاطفى قد يجمد المشاعر ، فما تكاد تتأثر بأخطر الحقائق .

وكثير من الناس يصلون فى حياتهم العادية الى هذه المنزلة من الركود العاطفى ، فتجد لديهم بروداً غريباً بإزاء المثيرات العاصفة ، لا عن ثبات وجلادة ، بل عن موت قلوبهم ، وشلل حواسهم .. !!

ونحن نعرف هذه الحالة فى طباع الناس ، ونحاول علاجها بألوان المثيرات التى لا تخطر ببال .

خذ مثلا عاطفة الحب الجنسى ، إن هذه العاطفة مع ارتباطها بأعتى الغرائز الانسانية لم تترك للون واحد من المنشطات المادية والأدبية ، بل تسابق الشعراء والمغنون ، والملحنون والموسيقيون لمداعبة النفس الإنسانية بألوان من الغناء واللحن والعزف تفوق الحصر .

فمن لم تعجبه أغنية هاجته أخرى ، ومن استغلق فؤاده أمام لحن انفتح أمام لحن آخر ، ومن طال به الإلف فهدأ،اخترعت له فنون أخرى تثير الهامد من إحساسه ، وهكذا .

وفى أغلب الآفاق المادية المعنوية يحسب لملال الإنسان وكلاله حساب دقيق ، وتؤخذ الحيطة له كى لا يقف بالمرء فى بدايات الطريق ... !!!

والقرآن الكريم فى تحدثه للنفس الإنسانية حارب هذا الملل ، وأقصاه عنها إقصاء ، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والحين حتى إنه ليمكنها أن تستقبل فى كل يوم ميلاداً جديداً : «وكذلك أنزلناه قرآنا عربياوصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً» .

وإحداث الذكر هو تجديد معنويات الإنسان كلما صدئت على طول التعب ومس الذهول .

وأسلوب القرآن فى هذا المجال يربى على كل تقدير .

إنه يخترق أسوار الغفلة ويصل الى صميم القلب .

وتوجد سورة بأكملها حافلة بهذه الإثارات المحركة لوعى الإنسان ، المجددة لقواه ومشاعره كلما استراخت وفترت .

وقد تقوم سور أخرى على طراز من المعانى التوجيهية كالتشريعات والأحكام لا صلة لها بانفعالات القلوب ، وذلك لا يغير من الحقيقة التى شرحناها ، فإن شئون المعاملات فى القرآن الكريم تستمد قداستها وصدق التأثر بها من مقررات

العقيدة والتقوى التى غرستها سائر السور والآيات .

والشعور بالرهبة والرقة يغمرك وأنت تستمع الى قصص الأولين والآخرين تروى بلسان الحق ، ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والمغازى والعبر تقشعر منه الجلود .

وأقرب الأمثلة لذلك سور الأعراف وهود والشعراء والقصص . الخ .

والهدف الأهم من وراء هذا السرد المتكرر ، ليس بيان الحق فقط ، بل هو ـ الى جانب ذلك ـ تعميق مجراه فى القلوب تعميقاً ينفى ما طبع عليه الإنسان من جدل وملل .



الاعجاز العلمى .. وأمثلة شتى !!

لا سبيل الى معرفة الله عن طريق التأمل فى ذاته ، فإن الوسائل الى ذلك معدومة ، وإنما طريق التعرف على الله يبدأ من التأمل فى خلقه .

وعن طريق التفكير السليم فى الحياة والأحياء ، واستخلاص المعارف القيمة الخارجة من الأرض أو النازلة من السماء ، يمكننا أن ندرك طرفاً من عظمة الخالق ، الأعلى ، وما ينبغى أن يوصف به من كمال . . . !!!

كيف يعرف روعة القدرة وإحاطة العلم ، ودقة الحكمة ، وجلال الموجد الكبير ، امرؤ مغلق الذهن ، مكفوف البصيرة ؟ يمشى على الأرض كما تمشى السائمة ، لا يستبين من صفحات العالم إلا ما تستبينه الدواب من قوانين الكهرباء ، أو أسرار الجاذبية ، أو معالم الجمال ، أو طبائع العمران .

إنك تنظر الى الآله الدوارة ، ذات التروس المتراكبة ، والأذرع المتشابكة تتحرك كما أريد لها بسرعة ونظام ، وتؤدى العمل المطلوب منها برتابة وإحكام ، فما تملك نفسك من أن تشهد بحدة الذكاء للذى اخترعها ، ومهارة اليد التى قدرتها ، ثم سيرتها .

ونحن كذلك ننظر الى ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما فوقنا وما تحتنا ، فما نملك أنفسنا من الشهادة لله ـ الذى أبرز ذلك كله من العدم ـ بأنه خلق فسوى ، وقدّر فهدى .

وكلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجود وسره ، وانكشفت لنا آياته وخباياه احسسنا أن عظمة المبدع الماجد فوق ما يطيقه وعينا المحدود ، وأن التحية التى تقدم لهذا الإله الجليل هى الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يبهر السنا المتألق عيون الناظرين !!!

إن درساً فى الطبيعة والكيمياء هو صلاة خاشعة .

وإن سياحة فى علم الأفلاك هى تسبيح وتحميد .

وإن جولة فى الحقول الناضرة ، والحدائق الزاهرة ، أو جولة مثلها فى المصانع الطافحة بالحركة ، المائجة بالوقود والإنتاج ، هى صلة حسنة بالله. ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وقد كنت أهش لحصص العلوم الكونية يوم كنا نتلقى دروسها فى مرحلة التعليم الثانوى .

وكانت حصيلتنا من هذه الدراسات حسنة ، أو هى على الأقل مهاد يستطيع طالب المزيد أن يبنى عليه .

ثم عرفت أن لجنة تعديل المناهج فى الجامع الأزهر طوحت بنصف هذه الدراسات ، وردت أكثر الباقى الى مرحلة التعليم الابتدائى .

وحجتها فسح المجال لعلوم اللغة والشريعة .

وهذا عمل طائش ، والحجة فيه داحضة ، فإن العلوم الكونية من صميم المعارف الإسلامية ، بل هى أولى بالله وبدينه من أكثر العلوم المنسوبة الى الإسلام الآن .

والحقيقة أن هذا التصرف عودة الى المعصية التى ارتكبها المفكرون الإسلاميون عندما ذهلوا عن البحث فى المادة ، وانشغلوا بالبحث فيما وراءها ، فرجعوا بعد عدة قرون من هذا الشطط وأيديهم صفر .

فلا هم الذين فهموا المادة وانتفعوا بعلومها المتاحة .

ولا هم الذين اخترقوا أسوار الغيوب ، وعرفوا كنه ما وراء الطبيعة .

بل ليت أيديهم عادت صفراً ، لقد عادت وملؤها الوهم من فلسفات النظر الفاشل ، والتفكير المريض .

إن كل توهين للدراسات المادية هو مُشَاقَّة واضحة لآيات النظر والتدبر الواردة فى القرآن الكريم ـ وما أكثرهاـ .

وما نغالى إذا قلنا : إنها حكم بالإعدام على هذه الآيات ، ثم إقامة مجتمع ساذج ، أو مستغفل أو بليد بين أرض وسماء حافلتين بالنور والقوة .

إن الله الذى خلق العقل نوه به وأشاد بقيمته .

وإن الله الذى أنزل الإسلام ، وأتم به النعمة ، جعل ملاك فقهه وقيام أمره على ذلك العقل .

وإن الله الذى أبدع هذا العالم لم يلق مفاتيح إبداعه للبله والحمقى ، وإنما ألقاها للعالمين الأذكياء .

ولم يتح تسخيرها للمفرطين العاجزين ، وإنما أتاحها لأولى العزم الأقوياء . . . !

***

والتطابق بين الكون الممهد ، وبين العقل الواعى كالتطابق بين الحق ، وغطائه . .

فإذا لم يستفق العقل ويؤدى رسالته ، انفصمت العلائق بينه وبين هذا

العالم ، وبالتالى وهت صلته بالله ، وانحسرت دون مداها .

فمن أين تتأتى معرفة الله على وجه مستكمل جميل إلا عن طريق إمعان النظر فى ملكوت الله ، ومطالعة روائعه بين الحين والحين ؟؟

وإذا كان ذلك طريق ابتداء المعرفة ، فهو كذلك طريق مضاعفتها .

ولايصدنك عن هذا الحق أن هناك علماء بالكون يجهلون ربهم ، فإن أسباب جهلهم أوجحدهم لا تنبعث من هذه الدراسات .

وإذا وجدنا من يقرأ الكتاب العزيز ويكفر به ، فليس كفرانه آتياً من قبل قراءته ، وما يجرؤ مسلم على تحريم القراءة ، لأن بعض المعلولين لم يحسن الإفادة منها ، كذلك لا يقبل من أحد أبداً أن يغض من شأن الدراسات الكونية لأنها لم تهد بعض الملحدين الى رب العالمين .

وليس ثمة تفاوت بين العلم والدين ، فإن الله الحق هو مصدر الاثنين ، وإذا لوحظ أن هناك اختلافاً فليس بين علم ودين ، بل بين دين وجهل أخذ سمة العلم ، أو بين علم ولغو لبس سمت الدين .

وسترى أن القرآن الكريم مستقيم كل الاستقامة مع كل الكشوف التى يميط العلم عنها الستار ، وذلك لا ريب من دلائل صدقه وآيات إعجازه .

فإن راكب الناقة ابن الصحراء - الذى لم يعل اللجج يوما أو يكابد الأنواء - حين يجىء على لسانه وصف علمى دقيق للبحر والجو ، نجزم بأن هذا الوصف ليس من عنده ، بل من عند عالم الغيب والشهادة .

هب أن فلاحاً من أغمار الصعيد كتب وصفاً لرحلة جوية بين شاطىء المحيطين ، ذكر فيها أنباء لا تعرفها إلا أدق المراصد ، وأحوالا ما يتبينها إلا أذكى الطيارين .

أتحسب أحداً يصدق بأنه قال ذلك من عند نفسه ؟؟

وقبل أن نذكر نماذج للرد المحكم الذى أفرغ القرآن فيه أوصاف الكون ، ومشاهد الطبيعة ، وقوى العالم ، نحب أن نذكر طبيعة الصلة بين العلم والدين ، أو بين آيات الله فى كتابه الكريم وآياته فى هذا الكون العظيم . . وذلك نقلا عن كتاب «سنن الله الكونيه» للدكتور العالم محمد أحمد الغمراوى .

قال بعد شرح للمسالك التى يتأدى بها العلم الى نتائجه : «رأيت مثلا من طريقة العلم فى تعرف أسرار الفطرة ، والاهتداء الى سنن الله فى الكون ، وتبينت كيف أن هذه الطريقة تضمن الوصول الى الحق فى القريب أو البعيد ، ،إن استعانت على ذلك بفرض الفروض .

لكن لا خوف قط على الحقيقة من هذه الفروض مادام العلم يطبق فروضه على الواقع ، ويمحصها بالتجربة والاختبار .

فهذه الطريقة فى الواقع هى طريقة العلم فى الاجتهاد ، وبينها وبين طريقة اجتهاد المجتهدين فى الدين وجه شبه مهم هو : أن رجال العلم يستوحون الحقيقة من صنع الله ، ورجال الدين يستوحون الحقيقة من كلام الله وحديث رسوله .

فكل فى الحقيقة مرجعه الى الله ، وإن لم يصل رجال العلم بعد الى الله .

وكل فى حكم الدين نفسه مرجعه الى الله ، إذ أن هذه الحقائق الطبيعية التى يكشف عنها العلم ببحوثه إن هى إلا نوع من كلمات الله ، أو هى كلمات الله الواقعة النافذة ، كما أن آيات القرآن هى كلمات الله الصادقة المنزلة .

ولقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات لله فى مثل قوله تعالى : «ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» .

«قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً» .

وكلمات الله فى هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله ، لأن كلماته سبحانه فى كتبه المنزلة محصورة محدودة.فى حين أن كلماته المشار إليها فى هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية .

فلابد أن تكون هى كلماته النافذة فى خلقه ، والتى يبدو أثرها متجسما فيما يشاهد من الحوادث ، وفيما يكشف العلم من أسرار الكون .

فالإسلام متسع للعلم كله : حقائقه وفروضه ، والمجتهد مثاب أخطأ أم أصاب ، مادام يريد وجه الحق ، وإن كان العلم لا يعرف الى الآن : أن سبيل الحق من سبيل الله .

***

وهذا الكلام يحتاج الى أمثلة تشرح غوامضه وتكشف خوافيه .

ما مظهر الوفاق بين آيات القرآن وأسرار الكون التى أطلعنا العلم عليها فى هذا الزمان ؟

وأين مصداق ما تلاه محمد على الناس منذ أربعة عشر قرناً ، فكان سبقه به دليلا على أنه لا ينطق على الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ؟

لقد ذكر الدكتور العالم أمثلة شتى تلمحها وهو يصف بدقة حقائق الطبيعة ، ثم يسوق بعدها الآيات القرآنية فإذا هى منطوية على هذه الأوصاف أو متجاوبة معها .

وكما سخر الله سبحانه وتعالى الجاذبية للإنسان فى إجراء الأنهار تسير الهوينى أو غير الهوينى الى سطح البحر ، سخرها له أيضاً فى كبح جماح البحر ، ومنعه أن يطغى بمائه الأجاج على النهر أو على اليابسه ، فهى دائما تحبسه فى مستقره الذى هو كما قلنا من قبل أقرب مواطن سطح الأرض الى مركز الأرض .

فالبحر لا يستطيع أن يفارق فى مستقره ذلك إلا بقوة أخرى تغلب قوة الجاذبية عليه وهيهات ، فكأنما البحر ملجم بالجاذبية أن يهجم على اليابسة من الأرض ، كلما همّ بالهجوم بفعل المد ، أو الريح ، أو حركة الأرض ، جذبته قدرة الله بلجام الجاذبية من خلف ، فيعود الى موطنه الذى كتب عليه أن يبقى مقيداً فيه .

ولقد منَّ الله سبحانه على الإنسان بهذا حين منّ عليه بحجزه بين البحرين ، أو بين البحر والنهر ، فى قوله :

« وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » .

وليس ذلك البرزخ ـ والله أعلم ـ إلا ارتفاع ما بين سطح البحر وسطح اليابسة التى يجرى فيها النهر .

وليس ذلك الحجر المحجور ـ والله أعلم ـ إلا الجاذبية بين البحر ومركز الأرض وحبسها البحر فى موطنه .

ولقد من الله على الإنسان بذلك مرة أخرى ، وعاب عليه ، وعجب منه . كيف يشرك مع الله إلها آخر رغم ذلك فى قوله سبحانه :

«أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون»

فتفهم هذه الآية الكريمة فى ضوء ما ذكرناه لك ، وتأمل تعقبه سبحانه بقوله : «بل أكثرهم لايعلمون» تعلم أن ذلك العلم من هذا الدين ، وأن هذا القرآن لم يأت إلا من خالق الفطرة ، وأنه لا غنى للمسلم عن علم الفطرة إن كان يريد حقاً أن يفهم شيئاً من سر الآيات الكونية فى القرآن .

على أن أهمية الجاذبية فى الكون أعظم من هذا بكثير ، فإن الجاذبية كما قد عرفنا ليست بين الأرض وما عليها فقط ، بل بين الأرض وماعداها من الكواكب ثم هى أيضا بين كل كوكب وما عداه .

فكل كوكب فى ملكوت الله يجذب كل كوكب آخر طبق سنة الجاذبية السابق ذكرها ، أى بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتى الكوكبين مقسوماً على مربع

المسافة بينهما ، وناتج كل هذه القوى الواقعة على الكوكب قوة واحدة يمسكه الله بها فى مداره أو فلكه أو فى موقعه الذى هو فيه إذا كان النجم من الثوابت .

فالجاذبية إذن على قدر علم الإنسان الى الآن ، هى القوة التى يمسك الله بها سبحانه السموات والأرض فى مواقعها التى قدر لها ، أو هذا إن شئت هو ما أدركه الإنسان الى الآن من سر قوله تعالى :

«إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده» .

وفى قوله تعالى : «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها» .

ومايشبهها من آيات القرآن الكريم ، إشارة الى قوى الجاذبية الخافية ، التى هى بعد تقدير الله لها سبب بقاء أجرام السماء فى أماكنها ، ومداراتها المقدرة لها .

فإنه إذا فهم من قوله تعالى : «بغير عمد ترونها» أن السموات مرفوعة بعمدٍ غير مرئية ـ كما هو ظاهر الآية ـ كانت تلك العمد غير المرئية هى قوى الجاذبية بين بعض الكواكب وبعض .

لأن العمد المعروفة المادية تؤثر أثرها وتحمل احمالها بإرسال قوى أو ضغوط تساوى وتضاد ضغوط الأبنية عليها كما هو صريح علم القوى ، وكما يحصل بالضبط بين الكواكب المتجاذبة .

فإذا عجزت العمد عن أن تكون ضغوطها المضادة لضغوط المحمولات عليها مساوية لهذه الضغوط ، تكسرت الأعمدة والجدران ، أو تشققت ، ويكون البناء أقرب الى التداعى بقدر ما بين ضغوط الأعمدة وضغوط الأحمال من فروق .

ففى حالة الأعمدة وما تحمل يوجد تضاغط واتزان ، كما أن هناك بين الأجرام السماوية تجاذباً وتوازنا ، وإن اختلف مدى التوازن ونوعه فى الحالين .

وينبغى أن نتذكر أيضاً أن الأعمدة ضاغطة ، وليست هى ـ بداهة ـ نفس الضغوط الخارجة منها ، وأن هذه الضغوط المقاومة لتقل الأبنية غير مرئية وإن رأينا الضاغط من عمود أو جدار .

كذلك قوى التجاذب بين أجرام السماء غيْر مرئية ، وإن رأينا أجرام السماء ، فالتعبير بالعمد غير المرئية عن القوى التى رفع الله بها السموات هو أدق تعبير ، وأبلغه فى الخطاب ، يفهم كلٌ منه بقدر ما رزقه الله من الفهم والعلم .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» .

فقانون الجاذبية هو مفتاح فهم أمثال الآيتين السابقتين من كتاب الله عز وجل ، إلا أن الإشارة الى القانون فى تلك الآيات الكريمة إشارة عامة من ناحية الوصفية» .

وهناك شرحه كذلك لظاهرة طبيعية أخرى .

الأمطار :

أما العوامل المسببة للأمطار ـ ومحورها كما رأيت الكهربائية الجوية ـ فقد أشير إليها إشارات واضحة فى أكثر من آية من تلك الآيات الكريمة آية الحجر : «وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين» .

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء لسقيا الناس ـ على إرسال الرياح لواقح .

والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية ، إذ لو كان ماذهبوا إليه هو المراد ، لترتب عليه إزكاء الزرع ، وإخراج الثمر للناس يأكلونه ، لا إنزال الماء من السماء يشربونه .

أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك من ناحية شبيهاً بلقاح الأحياء ، من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب .

وما عليك إلا أن تذكر ما قدمنا لك عن تكاثف السحاب مطراً ، وعن اثر كهربائيته فى ذلك التكاثف ، وأثر الرياح فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحاب وسحاب ، لتعلم أن المراد من وصف الرياح بأنها «لواقح» ليس هو الإشارة الى أثرها فى الجمع بين طلع أعضاء التذكير ، وبويضات التأنيث فى النبات ، ولكن هو الإشارة الى أثرها فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب .

فالملاقحة هنا بين قطيرات وقطيرات او بين سحاب وسحاب لا بين زهر وزهر !!

والشبه تام بين هذا التلقيح النباتى ، وذلك التلقيح الكهربائى ، أو بالأحرى ليس هناك تشبيه مطلقاً ، فإن اتحاد الكهربائيتين تلقيح ، إن كان اتحاد الخليتين تلقيحاً ، لأنه فى الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين ، يختفى به الشيئان ، ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

ففى حالة التلقيح النباتى ينشأ من بين الخليتين خلية واحدة لها خواص غير خواص أبيها ، وفى حالة التلقيح الكهربائى ينشأ من بين الكهربائيتين ضوء وحرارة لهما خواص غير خواص الكهربائيتين .

فهذا شرط الشبه الشديد للقاح الأحياء قد توفر .

أما شرط ترتب نزول الماء على تحقق هذا الإلقاح ، فقد عرفت توفره من ترتب تكاثف السحاب مطراً على التفريغ الكهربائى السحابى .

فآية الحجْر تلك هى مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر ، أمر كان يجهله الإنسان ، حتى كشف عنه العلم الحديث .

وهى طبعاً مثل رائع من التطابق التام بين العلم والدين فى الإسلام .

وآية أخرى أكثر تفصيلا من آية الحجْر هى آية النور :

«ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» .

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو فى قوله تعالى : «ثم يؤلف بينه» فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات الكريمة يرونها مجازا من المجازات البلاغية ، وهى حقيقة من أمهات الحقائق الكونية .

وهذه الكلمات مفتاح الآية الكريمة ، لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التى تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها ، فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة ، بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية ، حتى يتجاذب ، ويتعبأ فى الجو تعبئة كتعبئة الجيوش ، يتفق مع مايريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق ، وصواعق ، ومن مطر أو برد .

فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض ، نشأ السحاب الركام .

وقد ذكرنا لك قبل .. ما وجدوه من أن عمق الركام فى العواصف الرعدية يكون عظيما ، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض ـ كما هو الغالب ـ نزل المطر الناشىء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات ، وهو الودق .

فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب ، مايسمح بوقوع تلك الظاهرة الغزيبة ، ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ، ثلجية علوية ومطرية سفلية ، تكون البرد ، ونما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى ، فيسقط على الأرض رحمة إن كان صغيراً هيناً ، ونقمة إن كان كبيراً راجماً .

«فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء» . وليس يدرى الإنسان كثيراً عن الظروف التى يتكون فيها البرد ، لكنه يدرى أنها ظروف يسودها اضطراب جوى عظيم .

هذا الاضطراب قد أشارت الآية إليه والى طبيعته إشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذى يتكون البرد داخله .. بالجبال .

والثانية : حين أشارت الى عظم القوى الكهربائية المشتركة فى تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك : «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» .

وهناك آية أخرى أشارت الى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر إشارة من نوع آخر ، هى آية الواقعة : «أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً ، فلولا تشكرون !» .

وتستطيع ـ بعد أن عرفت العوامل المتعددة التى لابد من تعاونها على تكوين المطر ـ أن تدرك شيئاً من سر الحجة فى هذا السؤال العجيب : «أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟» .

لكن الإشارة التى أردنا أن نلفت النظر إليها هى فى قوله تعالى : «لو نشاء جعلناه أجاجاً ، فلولا تشكرون» .

والناس طبعاً يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب العذب أجاجاً ، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ، ولا يتساءلون : هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟

ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الما الذى يسقيهم الله إيَّاه من السحاب هى بمحض رحمة الله .

إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أنقى المياه ، لكن طبيعة تكونه من السحاب تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت ونتروجين ، والأزوت كما تعرف أيضاً لا يكاد يتحد فى العادة بشىء ، ولا بالأكسجين الذى يكاد يتحد بكل شىء .

لكن الكيميائيين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال الى أزوت فعال ، يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية .

كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الأتحاد بالاكسجين ، بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأ: وت

قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به ، وكون حمضين أزوتين ، أحدهما : حمض الأزوتيك ، أو ماء النار ، كما كان يسميه القدماء ، وإليه يصير الحمض الثانى .

وقليل من حمض الأزوتيك فى الماء كاف لإفساد طعمه .

وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً ، من غير خرق لأى سنة من سنن الله .

فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم : أن يتعدل التفريغ الكهربائى ، ويتكرر فى الهواء تكراراً يتكون به مقدار كاف من تلك الأكاسيد الأزوتية يذوب فى ماء السحاب ، ويحوله حمضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هوموضع المنّ من الله على الناس : أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ، ولا يؤج بها الماء .

إن شيئا من ذينك الحمضين لابد أن يترك فى ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول فى الأرض الى الأزوتات الضرورية لحياة النبات .

لكن الله برحمته وحكمته يقدّر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان .

ولو شاء الله لكثر الحمض فى ماء المطر فأفسده على الناس .

وسواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها ، فإن فى قوله تعالى : «لو نشاء جعلناه أجاجاً» إشارة الى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة ، ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العلمية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى الى حمض .



الاعجاز البيانى .. وهذا التفرد !!

إننى واحد من الألوف التى قرأت هذا القرآن ، ومررت بمعانيه وغاياته مرور العابر حيناً ، ومرور المتفرس المتأمل حيناً آخر .

والقرآن ليس الكتاب الوحيد الذى طالعته ، فقد طالعت مئات الكتب الأخرى على اختلاف موضوعاتها ، واقتربت من نفوس أصحابها ومن ألبابهم ، وأذنت لهذه الكتب أن تترك آثارها فى فكرى ، لأقلبها على مكث ، وأنتفع بما أراه نافعاً وألفظ ما أراه باطلا .

ومن اليسير علىَّ وعلى أى قارىء مثلى أن يكوّن حكماً معيناً على الكتاب الذى تناوله.فقد أخلص من قراءة كتاب ما ، ثم أقول : هذا لمؤلف واسع الاطلاع .

أو أقول : إن ثقافته غزيرة فى الآداب الأجنبية ، أو إنه طائل الثروة فى الأدب العربى القديم ، أو إنه ملم بآخر ما وصلت اليه الكشوف العلمية ، أو إنه قصير الباع فى إعطاء المعنى حقه ، أو إنه مصطبغ بلون يسارى ، أو أنه من المعجبين بالفيلسوف الفلانى ، أو إن فى نفسه عقده تميل بأسلوبه الى الحدة فى ناحية كذا ، أو إنه مرن الفهم والأداء .. الخ .

وقلما أعجز من استبانة الخصائص الإنسانية المتباينة فى تآليف الرجال الذين طالعت نتاجهم الذهنى ، أو آثارهم الروحية .

وكثيرون غيرى يجدون فى أنفسهم هذه القدرة .

وقد تلوت القرآن مراراً ، ورجعت بصرى فى آياته وسوره ، وحاولت أن أجد شبها بين الأثر النفسى والذهنى لما يكتب العلماء والأدباء ، وبين الأثر النفسى والذهنى لهذا القرآن ، فلم أقع على شىء البتة .

وقد أحكم بأن كتاباً ما صدر عن مؤلف فى عصر كذا ، وأن جنسية هذا المؤلف ومزاجه وأهدافه هى كيت وكيت .

أما بعد قراءة القرآن ، فأجزم بأن قائل هذا الكلام محيط بالسموات والأرض ، مشرف على الأولين والآخرين ، خبير بأغوار الضمائر وأسرار النفوس ، يتحدث الى الناس تحدث السيد الحقيقى الى عباده الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ، ويتناول الأمم والقرون فى هالة من الجبروت والتعالى ، يستحيل أن تلمح فيها شارة لتكلف أو ادعاء .

ومع رفعة المصدر الذى تحس أن القرآن جاء منه إحساسك بأن هذا الشىء أتى

من بعيد ، فإنك ما تلبث أن تشعر بأن الكلام نفسه قريب من طبيعتك ، متجاوب مع فطرتك ، صريح فى مكاشفتك بمالك وما عليك ، متلطف فى إقناعك ، فما تجد بداً من انقيادك لأدلته ، وانفساح صدرك لتقبله .

***

ولا تحسبن هذا الوصف متأثراً بمواريث التدين التى انتقلت إلينا من الأولين فإن الكفار أنفسهم ادركوا أن القرآن مباين بأسلوبه الخاص لجنس ما ألفوا من كلام ، وملكتهم الدهشة لدى سماعه .

فقد روى أن الوليد بن المغيرة ـ وهو من زعماء الكفر فى مكه ـ جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، واستمع الى ما يتلو من هذا القرآن فلما أنصت وتدبر ، كأنما رق له قلبه ، فبلغ ذلك أباجهل فأتاه وقال له :

ياعم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ليعطوك إياه ، فإنك أتيت محمداً وملت الى دينه . . !!

قال الوليد ـ مستنكرا عرض المال عليه ـ لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا .

قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك ، فيعلمون انك مكذب له وكاره .

قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لابرجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن .

والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .

وغضب أبو جهل لهذه الشهادة ، فإن الصدق فى هذه القضية لا يعنيه ، بل يؤذيه !!

والعراك على الرياسة فى هذه البيئات يذهل عن شئون الكفر والإيمان .

فليكن محمد صادقاً . وليكن كلامه وحيا .

بيد أن المصلحة القبلية تقضى بكتمان أمره ، وانتقاص شخصه .

ولذلك عاد أبو جهل يلح على الوليد: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه !

فقال الوليد : دعنى أفكر .

وفكر الوليد ، ثم أحب أن يكون منطقياً مع نفسه فقال : هذا سحر !!

ولعله يقصد بالسحر ما جاءت به قوى خفية ، لا يعرف الناس عادة حقيقتها .

وفى هذا الحوار نزل قوله عز وجل :

«ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه صقر»

والواقع أن من الكذب الشائن على الفطرة والبداهة ، وعلى العقل والرواية ، أن يزعم زاعم بأن القرآن كلام عادى ، وأن أديباً راسخ القدم فى البلاغة يستطيع أن يجىء بمثله .

***

وقد تساءل كثيرون عن أسرار هذاالتفرد الذى اتصف به القرآن الكريم .

ولاشك أن المعانى التى يتضمنها والتى نسج سداها ولحمتها من الحق الخالد أساس لهذا الاعجاز ، بيد أن المعنى على جلاله إن لحقه قصور فى صورته وأثره ، نقصت قيمته ، وطاشت دلالته .

وهناك معان جميلة فى نفوس أصحابها ، ولو استبانت على السطور لأشرقت بها الصحائف . . ولكنها مشاعر فى النفوس فحسب .

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما . . جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فتصوير المعنى الصادق حتى يبرز فى الحروف كما يبرز الجمال الإنسانى فى أبهى حلله ، وحتى ينتقل سناه الى الأفئدة نفاذاً أخاذاً ركن ركين فى خدمة الحقيقة ، وبسط سلطانها ، وإزاحة العوائق من أمامها .

وقد تعرض لفيف من علماء الإسلام لشرح الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

وكنت أنا نفسى كثير الطواف حول هذا الجمال البيانى ، أسرح فيه الطرف وأردد فيه الفكر ، لكنى كنت كالذى شغله الإعجاب بالجمال ، عن وضع تفاسير له ، أو لعلنى حاولت ثم غلبنى القصور ، فتوقفت مؤقتاً حتى تسنح فرصة .

الى أن قرأت للمرحوم العلامة الشيخ «محمد عبدالله دراز» كتابه «النبأ العظيم ـ نظرات جديدة فى القرآن» فرأيت الرجل وفّى هذا المجال حقه ، وأفاض فى الحديث ، كأنما يتدفق من ينبوع لا يغيض أبدا .

وودت لو أن الرجل بقى حتى أكمل ما بدأ ، بيد أن المنية عاجلته فقضى وهو مجاهد فى سبيل ربه ـ طيب الله ثراه .

***

شرح الدكتور فى تفصيل طويل المعانى التى احتواها القرآن والتى يستحيل ـ

بالبراهين الحاسمة ـ أن تصدر عن بشر ، وأحصى جملة الشبه التى يمكن أن تخطر ببال أى متردد مرتاب ، ثم أجهز عليها .

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصى فى طلب الحقيقة وبسط الإجابة فى أدب وفقه ، واسمع الى هذا البيان :

«فإن قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً» .

وأنهم وجدوا فى طبيعة القرآن سراً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم ، ولكنى لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من نطاق هذا السر ، لأنى أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية .

فمن حروفهم ركبت كلماته ، ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته ، على مناهجهم فى التأليف جاء تأليفه .

فأى جديد فى مفردات القرآن لم تعرفه العرب من موادها وأبنيتها ، وأى جديد فى تركيب القرآن لم يعرفه العرب من طرائقها ، ولم تأخذ به فى مذاهبها حتى نقول : إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية .

قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج فى لغته عن سنن العرب فى كلامهم إفراداً وتركيباً فذلك فى جملته حق لاريب فيه ، وبذلك كان أدخل فى الإعجاز وأوضح فى قطع الأعذار « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت أياته االعجمى وعربى » . فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان .

فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن فى الأرض ، ولا يخرجون فى صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرعة .

ولكنهم تتفاضل صناعتهم وراء ذلك فى اختيار أمتن المواد ، وأبقاها على الدهر ، وأكنها للناس من الحر والقر ، وفى تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة فى المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء .

فمنهم من يفى بذلك كله ، أو جله ، ومنهم من يخل بشىء منه أو أشياء . الى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسى فيها تفاوتاً بعيداً .

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى ، يتفاوت حظها فى الحسن والقبول .

وما من كلمة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة

وقواعدها فى الجملة .

ولكنه حسن الاختيار فى تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك .

وسوء الاختيار فى شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجُّه أذنك ، وتفتر منه نفسك ، وينفر منه طبعك» .

***

وينتقل الدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز الى خصائص الأسلوب القرآنى ، فيبين الأسباب التى بلغ بها درجة الإعجاز ، ولولا أن الرجل حافظ فاقه لكتاب الله ، وضليع مكين فى آداب العربية ، وعابد مخبت تفتحت أمام بصيرته النيرة الحكم البالغات التى غابت عن غيره ، ما استطاع أن يصور لنا هذه الخصائص ويجعلها منا رأى العين . . ونكتفى بنماذج قليلة من كلماته ، لاتغنى ألبته عن مدارسة الكتاب ذاته . قال :

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس .

فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب به الأغنياء لنزلت بهم الى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب .

ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التى تخاطب بها الأذكياء ، لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم .

فلا غنى لك - إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى .

كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال .

فأما أن جملة واحدة تلقى الى العلماء والجهلاء ، والى الأذكياء والأغبياء ، والى السوقة والملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله ، وعلى وفق حاجته ، فتلك ما لا تجده على أتمه إلا فى القرآن الكريم .

فهو قرآن واحد ، يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه الى عقولهم ، لا يلتوى على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه الى ترجمان وراء وضع اللغة .

فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» .

وفى النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها .

فأما إحداهما ، فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به .
وأما الأخرى : فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم .
والبيان التام هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين ، ويطير الى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية ، والمتعة الوجدانية معاً .
فهل رأيت هذا التمام من كلام الناس؟
لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء وهؤلاء إلا غلواً فى جانب ، وقصوراً فى جانب .
فأما الحكماء : فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولاتتوجه نفوسهم الى استهواء نفسك ، واختلاب عاطفتك .
فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم ، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع .
«وأما» الشعراء : فإنما يسعون الى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً ، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً .
فتراهم جادين وهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا يبكون ، ويطربون وإن كانوا لا يطربون .
«والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون» .
وكل امرىء حين يفكر ، فإنما هو فيلسوف صغير ، فسل علماء النفس :
«هل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وسائر القوى النفسية على سواء ؟ ولو مالت هذه القوى الى شىء من التعادل عند قليل من الناس ، هل ترونها تعمل فى النفس دفعة واحدة وبنسبة واحدة ؟» .
يجيبونك بلسان واحد :
كلا ، بل لا تعمل إلا مناوبةً فى حال بعد حال ، وكلما تسلط واحدة منهن اضمحلت الأخرى ، وكاد ينمحى أثرها .
فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوة وجدانه ، والذى يقع تحت تأثير لذة أو ألم ، يضعف تفكيره ، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية الى جانب من هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً .
وصدق الله : «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» .
فكيف تطمع من إنسان فى أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء ؟

وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به فى كل لسان وقلم ، أى القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب .

فإذا رأيته يتجه الى تقرير حقيقة نظرية ، أو وصف طريقة علمية ، قلت : هذا ثمرة الفكرة .

«وإذا» رأيته يعمد الى تحريص النفس أو تنفيرها ، وقبضها أو بسطها ، واستثارة كوامن لذاتها أو ألمها ، قلت : هذا ثمرة العاطفة .

«وإذا» رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين الى الآخر ، فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه ، كما ينتقل من غرض الى غرض ، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه .

وأما أن أسلوبا واحداً ، يتجه اتجاهاً واحداً ، يجمع فى يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهارا وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح فى الجسد ، والماء فى العود الأخضر ، فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر ، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية .

فمن لك اذن بهذا الكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين .

فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن .

وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين .

وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت .

ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره ، لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟

أو لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه ، لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ، يبث ذلك فى مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها .

«تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله» .

«إنه لقول فصل وما هو بالهزل» .



القرآن مدهش .. من أى وجه كان !!

وكتب السيد هبة الدين الحسينى رسالة جيدة فى اعجاز القرآن لخصها الأستاذ عيسى صباغ فى هاتين النظرتين :

يقول الشيخ هبة الدين : لا ريب أن القرآن قد أدهش نوابغ العرب ، وأخرس شقشقة البلغاء فى عصره .

ولكن : ألِأسلوبه الرائق ، ولفظه الريق ، ونظامه العجيب ؟ أم لبدائع معانيه الجذابة ، وعظمة مبادئه ، ولطائف أمثاله فيه ؟ .

لا نعلم . . وإنما نعلم أنه أدهش ويدهش العربى العارف . . وربما كان أثره فى العامة من النواحى الأولى ، وفى الخاصة من النواحى الأخرى ، كما أثر بأنبائه الغريبة ، وبأسرار فى إشاراته واستعاراته فى الأجيال السائرة .

أجل ، هذا القرآن مدهش من أى وجه كان ، وآية عبقريته ساطعة ، وقد استعان به منقذ العرب بعد ما غدوا سكارى بخمرته ، فأحيا ذكرهم ، وأصلح أمرهم ، وأدبهم كما شاء وشاءت المصلحة ، واستخرجهم من ظلمة العادات القاسية الى ضياء عيشة راضية .

ثم استخدم أولئك المهتدين بأنوار القرآن كألسنة لدعوة الأمم ، وسيوف لإدانة العالم .

ويستطرد الى بيان ميزة القرآن بين المعجزات ، فيقول بأسلوبه السهل البليغ : «إن أكبر ميزة فى القرآن ـ وهى التى وضعته فوق المعجزات كلها ـ هى أنه مجموعة فصول ليست سوى صبابة أحرف عربية . . من أيسر أعمال البشر ، وقد فاقت مع ذلك عبقرية كل عبقرى . . فلم يخلق رب الإنسان للإنسان عملا ـ بعد التفكر ـ أيسر لديه من الكلام» .

وكلما كان العمل البشرى أيسر صدوراً ، وأكثر وجوداً ، قل النبوغ فيه وصعب افتراض الإعجاز والإعجاب منه .

هذا . ونرى الناس فى عهدنا مطبوعين على استحباب الشهرة والأثرة وطلب التفاضل والتفاخر فإذا رأوا أحدهم يبغى التفوق عليهم بصناعته ، اندفعوا بكل قواهم الى مباراته ، وجدُّوا لكى يأتوا بخير منه . وقد فطر البشر على مثل هذا الشعور . . والشعب العربى المعاصر للنبى صلى الله عليه وسلم ، كان ولا ريب، منطوياً على هذا الشعور تماماً .

فلماذا لم يندفع الى مباراة القرآن ؟ ولا سيما بعدما شاهدوا من صناعة هذا النبى صلى الله عليه وسلم فائدة وعائدة .

وَلِمَ لم يعارضوا عبقريته فى البلاغة وهو فرد وهم ألوف ؟

ألعدم وجود أساتذة فيهم لهذه الصناعة ؟ كلا ، لقد كانت تربة الحجاز خصبة منبتة لأساتذة الفصاحة والبلاغة .

فلم لم يندفعوا الى معارضته بالمثل ، وهو المعارض لهم بكل ما يستطيع من قوة ؟ ولماذا اندفعوا الى مقاتلته دون مقابلته ؟ والى مقابلته بالأسنة دون الألسنة ؟ وبالحراب بدل الكتاب ؟ حتى أفرغوا كنانتهم برمى آخر نبلة فيها ولم ينجحوا .

ليت شعرى مم وبم أعجزت عبقرية ذلك الفرد المستضعف فيهم وهم الوف ، ومعتزون بالوف ؟ وكيف أعجزتهم أسطر وكلمات وحروف ؟

ثم ينتقل المؤلف الى تحليل تلك الدهشة وتعليل بواعثها ، فيقول : «حرى بنا أن نحلل هذه الدهشة الغريبة وأسبابها الحقيقية ونقيس أنفسنا «ونحن فى هذا القرن» على أولئك الأساتذة «وإن كانوا فى القرون الأولى» قياساً حسب ذلك المقياس القائل «الناس كالناس ، والأيام واحدة» فإذا عم الإعجاب بالقرآن أساتذة عصرنا الراقى ، فلا نلوم المعجبين بالقرآن فى القرون الأولى» .

ثم يستشهد بتقدير العلامة جبر ضومط فى كتاب « الخواطر الحسان » لآيات القرآن وبلاغتها وبشعر ونثر للفيلسوف الدكتور شبلى شميل القائل :

دع من محمد ، فى صدى قرآنه ما قد نحاه للحمة الغايات
إنى وإن أك قد كفرت بدينه هل أكفرن بمحكم الآيات ؟
ومواعظ لو أنهم عملوا بها ماقيدوا العمران بالعادات ؟
من دونه الأبطال فى كل الورى من حاضر أوغائب أوآت !

كما قال : إن فى القرآن أصولا اجتماعية عامة فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها فى كل زمان ومكان . . حتى فى أمر النساء ، فإنه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج واحدة عند عدم إمكان العدل .

والقرآن قد فتح أمام البشر أبواب العمل فى الدنيا والآخرة ، بعد أن أغلق غيره من الأديان تلك الأبواب .

وذكر أن الشيخ ناصيف اليازجى أوصى ولده إبراهيم لتقوية براعته فى الأدب العربى قائلا : «إذا شئت أن تفوق أقرانك فى العلم والأدب ، وصناعة الإنشاء ، فعليك بحفظ القرآن ، ونهج البلاغة» .

ونوه بإعجاب طائفة من نوابغ الفرنجة أمثال كارليل وولز وتولستوى ومونتيه بالقرآن الشريف وبعبقرية النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم انتقل الى موضوع دهشة الأولين الذين قهرتهم عبقرية النبى الأمى وقرآنه فقال : «إذا قام بيننا البناء والحداد ينظمان القريض أعجبنا حسن القصيدة من جهة ، وغرابة المصدر من جهة أخرى ، لأنهما عاملان أميان لم يأخذا من الدراسة والكتابة حظاً .

فمحمد الأمى المخاطب بآية «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك» ربيب البادية ، وخريج حى بنى سعد ينهض فى أم القرى بدعوة نسخ الانظمة ، وتعديل الشرائع ، وإصلاح العالم .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى : إنه أفنى قواه فى معارضة أقوام سفلة ، وكابد الأذى والأسى من الأفواه والأيدى ، وقضى حياته فى إدارة الحروب والمغازى ، وهو ما بين هذه وتلك يأتى بكتاب يعجز عن مباراته بلغاء عصره ونوابغ دهره ، لا بد أن يدهش الناس أمره ، وحق لهم أن يندهشوا ، لأن الرجل الأمى قد يفوز بالعبقرية ، ولكن عبقريته لابد أن تتجه إما الى ميادين الحروب فيكون من عظماء الفاتحين ، وإما تتجه الى اندية الرأى ومجالس الشورى فيكون من كبار الساسة والدهاة .

أما أن يجمع تلكما الحسنيين ويضيف اليهما نبوغاً فى العلم ، ونبوغاً فى التشريع والقضاء ، ونبوغاً فى جذب عواطف الخاصة والعامة ، فلم يسمع به التاريخ ، ولم يسمع به الزمان .

وربما عد الفن وجوده ضرباً من المحال . . إذن فالدهشة طبيعية لدى مشاهد بطل كهذا .

بطل فى العلم والنظم .
بطل فى السياسة والفلسفة معاً .
بطل فى الإرادة وفى مداراة الخاصة والعامة جميعاً .
بطل فى التشريع والتنفيذ حتى على نفسه .
بطل فى كل ذلك ، ثم هو فوق ذلك أمى غير متعلم .

وأكثر ما يعجب فيه : أنه لم يتخصص بفن واحد من الفنون ، لا فى الفاظه ونظمه ، ولا فى معانيه وحكمه . فبينما نراه يتصدر ببلاغة عجبى ، وأمثال عذبى ، إذ يجرى فى ميدان العلم أو مضمار الفلسفة ، فيبدى من أسرار الطب والطبيعة وكائنات الأرض وكامنات السماء ونواميس الكون مالا تفى بشرحه الصحائف مما نطق به امس وانكشف سره اليوم .

ثم نراه خائضاً فى تاريخ القرون الخالية والأمم البائدة ، غير مستند على آثار وأسفار ، ثم تأتى الحفريات والأثريات مصدقتين له وشارحتين إياه ، بعد قرون وأجيال .

وكذلك نراه يسن نظاماً ، ويفسخ أحكاماً ، غير مستند فى ذلك الى مشاورات أو مؤتمرات ولكن الظروف الأخيرة ، والتجارب المتعاقبة ، ومؤتمرات عصورنا الحالية تذعن له ، وتعلن اتفاقها معه ، ذلك عدا الأنباء الغيبية عن أحوال أفراد وأقوام . هى والله بواعث الإعجاب والدهشة العامة التى اعترت وتعترى الناس من عرب ومستعربة ، كما تلوا القرآن أو تليت عليهم آياته وفسرت بيناته».

رأينا فى نظرتنا السابقة نموذجاً شائقاً من التفكير والتحليل فى أسلوب عصرى سائغ جرى به قلم العلامة هبة الدين الحسينى الشهرستانى تمهيداً لبحثه فى إعجاز القرآن .

يبدأ علامتنا تحليله بسؤاله : هل تحدى الرسول بالقرآن ؟ ثم يقول : صدور التحدى من الرسول لأهل الصنعة أساس ينبغى ثبوته قبل أى شىء آخر ، حتى يكون المعجز معجزة ، وعدم التصدى بعد التحدى ملزما للخصم . . ويتبع هذا بشواهد الآيات الناطقة بالتحدى ، ومنها هذه الآية :

«وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» .

ولكن فصحاء العرب أعرضوا عن هذا التحدى المتكرر ، وأحجم أبو سفيان عن تجنيد جيش من شعراء الجزيرة وأدبائها لمعارضة القرآن،بل جد فى تأليف جيش من عشرة آلاف لمقاتلة النبى وحزبه .

والى جانب هذا فشل من حاولوا المعارضة .

ثم نجد أمثال الوليد ولبيد والأعشى وكعب بن زهير يذعنون لسمو معانى القرآن وبلاغته ، وقد كانوا معدودين أساطين البلاغة فى زمنهم .

وتؤثر روعة القرآن فى نفوس العرب فيرفعون القصائد السبع المعلقات من حول الكعبة وهى خير ما جادت به قرائح الشعراء العباقرة أمثال امرىء القيس وطرفه ابن العبد وكعب بن زهير ، وعمرو بن كلثوم ، خجلا منهم وانفعالا ، كالذى زين البيت بقناديل الزيت ، ثم سطعت من حولهن مصابيح الكهرباء القوية على حد تعبير المؤلف .

وقد حاول أفذاذ من الأدباء بعد معارضة القرآن فلم يوفقوا ، وذكر المؤلف

عدداً منهم ، ولعل أشهرهم عبدالله بن المقفع .

ثم استشهد المؤلف بآراء نخبة من أعلام الفرنجة النقاد والأدباء فى تقدير مزايا القرآن وإعجازه .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى تشريح هذه المزايا . فيعد منها ثمانية وعشرين كرؤوس أقلام ، ثم يتناول وجوه الإعجاز على المحك ، ويقارن بين الشهنامة الفارسية فى امتيازها ، والقرآن العربى فى إعجازه على سبيل المثال .

ثم يذكر النظريات السبع للعلماء فى وجه الإعجاز ، وأهمها صدور القرآن من أمى ، وبلاغته الفائقة ، وغرابة أسلوبه ، وأنباؤه الغريبة الصادقة .

وحرى بنا أن نذكر هنا مع ذلك المزايا الإجمالية التى سردها المؤلف لمزايا القرآن ، الا وهى :

(١) فصاحة ألفاظه الجامعة لكل شرائطها .

(٢) بلاغته بالمعنى اى موافقة الكلام لمقتضى الحال ومناسبا عن المقام ، أو بلاغته الذوقية المعنوية .

(٣) مسحة البداوة ، أى عروبة العبارات الممثلة لسذاجة البداوة مع اشتمالها على بسائط الحضارة .

(٤) توافر المحاسن الطبيعية فوق المحاسن البديعية .

(٥) إيجاز بالغ حد الإعجاز بدون أن يخل بالمقصود .

(٦) إطناب غير ممل فى مكرراته .

(٧) سمو المعنى وعلو المرمى فى قصد الكمال الأسمى .

(٨) طلاوة أساليبه الفطرية ومقاطعه المبهجة ، وأوزانه المتنوعة .

(٩) فواصله الحسنى وأسجاعه الفطرية .

(١٠) أنباؤه الغيبية وأخباره عن كوامن الزمان وخفايا الأمور .

(١١) أسرار علمية لم تهتد العقول اليها بعد عصر القرآن إلا بمعونة الأدوات الدقيقة ، والآلات الرقيقة المستحدثة .

(١٢) غوامض أحوال المجتمع ، وآداب أخلاقيه تهذب الأفراد ، وتصلح شئون العائلات .

(١٣) قوانين حكيمة فى فقه تشريعى فوق ما فى التوراة والإنجيل وكتب الشرائع الأخرى .

(١٤) سلامته من التعارض والتناقض والاختلاف

(١٥) خلوصه من تنافر الحروف وتنافى المقاصد .

(١٦) ظهوره على لسان بدوى أمى لم يعرف الدراسة ، ولا ألف محاضرة ال...

ولا جاب الممالك سائحاً مستكملا .
(١٧) طراوته فى كل زمن وكونه غضاً طريا كلما تلى وأينما تلى .
(١٨) اشتماله على السهل الممتنع الذى يعد فى الشعر ملاك الإعجاز والتفوق النهائى .
(١٩) قوة عباراته لتحمل الوجوه وتشابه المعانى .
(٢٠) قصصه الحلوة وكشوفه التاريخية من حوادث القرون الخالية .
(٢١) أمثاله الحسنى التى تجعل المعقول محسوساً وتجعل الغائب عن الذهن حاضراً لديه .
(٢٢) معارفه الإلهية كأحسن كتاب فى علم اللاهوت ، وكشف أسرار عالم الملكوت ، وأوسع سفر من مراحل المبدأ والمعاد .
(٢٣) خطاباته البديعية وطرق إقناعه الفذة .
(٢٤) تعاليمه العسكرية ومناهجه فى سبيل الصلح وفنون الحرب .
(٢٥) سلامته من الخرافات والأباطيل التى من شأنها إجهاز العلم عليها كلما تكاملت أصوله وفروعه .
(٢٦) قوة الحجة وتفوق المنطق .
(٢٧) اشتماله على الرموز فى فواتح السور ، ودهشة الفكر حولها وحول غيرها .
(٢٨) جذباته الروحية الخلابة للألباب ، الساحرة للعقول ، الفتانة للنفوس .

ولكن اختيار المؤلف يقع على الوجه الأخير الى جانب بلاغة القرآن الجامعة فهما عنده وجه الإعجاز المقصود فى أيات التحدى .

ولعل من الأصوب أن يضاف الى ذلك تضمنه الأسس لشريعة إنسانية صالحة لكل زمان ومكان .

***

وهاك هذه الصورة من طرائف الأدب العربى ، ونحن حين نسوقها نعلم أنها تضمنت وقائع من نسج الخيال ، بيد أن الرمز الذى يتألق فيها يشير الى المنزلة الجلية التى كونها القرآن فى النفوس ، ويشرح كيف نفذ بيانه الى شغاف القلوب ثم استقر .

وهذه الصورة من رواية صاحب الأمالى :

حدثنا أبوبكر قال : حدثنى عمى عن أبيه عن ابن الكلبى عن أبيه قال : كان خنافر بن التوأم الحميرى وكان قد أوتى بسطة فى الجسم وسعة فى المال وكان عاتيا .

فلما وفدت وفود اليمن على النبى صلى الله عليه وسلم وظهر الإسلام ؛ أغار على إبل لمراد فاكتسحها ، وخرج بأهله وماله ولحق بالشجر ، فحالف جودان بن يحيى الفرضمى وكان سيداً منيعاً ، ونزل بواد من أودية الشحْر مخصب كثير الشجر من الأيك والعرين .

قال « خنافر » وكان « رئيى » (شيطان يشبه شياطين الشعراء) فى الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى ، فلما شاع الإسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك .

فبينما أنا ليلة بذلك الوادى نائم ، إذ هوى هَوِّى العقاب . . قلت من ؟ فقال خنافر ؟ فقلت شصار ؟ فقال اسمع أقل .

قلت : قل أسمع ، فقال : عه تغنم .

لكل مدة نهاية ، وكل ذى أمد الى غاية . قلت : أجل .

فقال : كل دولة الى أجل ، ثم يُتاح لها حِوَل .

انْتُسختْ النِّحَل ورجعتْ الى حقائقها الملل ! إنك سجير «يعنى صديق» موصول والنصح لك مبذول ، وإنى آنست بأرض الشام نفراً من آل العذام «الجن» حكاماً على الحكام ، يَذْبُرون «يقرأون» ذا رونق من الكلام ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلفت «اى منعت» .

فقلت : بم تهينمون والام تعتزون ؟ قالوا : خطاب كُبَّار ، جاء من عند الملك الجبار .

فاسمع ياشِصار عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار .

فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ابتعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآى الكبر .

قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟

قال : أحمد خير البشر .

فإن أمنت أعطيت الشَّبْر «يعنى الخير» وإن خالفت أصليتَ سَقَر .

فامنت ياخنافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر وإلا فهو الفراق لا عن تلاق .

قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال : من ذات الأحرين «صحراء حول المدينة» والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين .

قلت : أوضح ! قال : إلحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ،

فهناك أهل الطَوْل والفضل ، والمواساة والبذل .

ثم أملس عنى «يعنى ذهب» فبت مذعوراً أراعى الصباح .

فلما برق لى النور امتطيت راحلتى ، وآذنت «يعنى اعلمت» أعبدى ، واحتملت أهلى ، حتى وردت الجوف ، فرددت الإبل على أربابها بحوطها وسقابها .

وأقبلت أريد صنعاء فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الإسلام وعلمنى سوراً من القرآن فمنّ الله على بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقلت فى ذلك :

ألم تر أن الله عاد بفضله ... فأنقذ من لفح الجحيم خنافرا
وكشّف لى عن حَجْمَتَىَّ[1] عماهما ... وأوضح لى نهجى وقد كان دائرا
دعانى شصار للتى لو رفضتها ... لأصليتُ جمرا من لظى الهوْب واهرا[2]
فأصبحت والإسلام حَشْوَ جوانحى ... وجانبت من أمسى عن الحق نافرا
وكان مضلى من هُديتُ برشده ... فلله مُغْوٍ عاد بالرشد آمرا
نجوت بحمد الله من كل قحمة ... تُؤَرِّث هُلْكاً يوم شايَعْتُ شاصرا
وقد أمِنَتْنى بعد ذاك يُحابِر ... بما كنت أغشى المنديات يحابرا[3]
فمن مبلغ فتيان قومى ألوكة[4] ... بأنى مَنْ أقتال[5] من كان كافرا
عليكم سواء القصد لا فُلّ حدكم ... فقد أصبح الإسلام للكفر قاهرا

---

(١) عينى

(٢) الهوْب: النار . والواهر: الساكن من شدة الحر .

(٣) يعنى أن قبيلته أمنت ما كان يغشى أنديتها .

(٤) رسالة

(٥) أعداء

الفهرس

القرآن وليلة القدر

رقم الايداع : ٢١٤٦ / ١٩٩٢

الترقيم الدولى : I.s.B.N

977 - 08 - 0368 - 5

أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات

الغلاف بريشة : سيد عبدالفتاح

هذا الكتاب

.. لأنه أصبح ضرورة .. وقد وضعنا أقدامنا على الطريق ، أن نمضى قدما لاستعادة مجدنا الغائب وعزنا المأمول .. ولذلك فلا خطوة إلى الوراء ..

.. ولأنه بات واضحا ومؤكدا فشل جميع النظريات والفلسفات والمفاهيم المستوردة التى جعلت من بلادنا وأمتنا حقل تجارب سياسى واجتماعى واقتصادى .. لأنها لا تتوافق مع ديننا ، ولا تنسجم مع تقاليدنا ، ولا تعبر عن روحنا ..

.. ولأنه لا يصح إلا الصحيح .. ولأنه لا يصلح هذه الأمة ، إلا ما صلح به أولها ، وهو : القرآن الكريم ..

.. لذلك كله .. وكثير غير ذلك كله .. كانت هذه السلسلة الإسلامية .. التى نضعها اليوم بين يدى القارئ فى كتابها الرابع عن : « القرآن وليلة القدر » .. وكان كتابها الأول عن : « الاسراء والمعراج » .. فى ضوء القرآن الكريم والسيرة النبوية والسنة المطهرة ، وكان كتابها الثانى عن : « رمضان والصيام » .. والثالث « المرأة فى الإسلام » ..

ونحن بهذه السلسلة التى نرجو أن تكون إسهاما فى نشر الثقافة الإسلامية الرفيعة بين الجماهير العريضة التى تتطلع إلى العلم والمعرفة والنور .. نرجو أيضا أن تكون دعوة لهذه الجماهير إلى صحبة كريمة ، لكتاب الله الكريم : بحثا ودرسا وتأملا لنمضى بخطوات واثقة على الطريق لاستعادة مجدنا الغائب ، وعزنا المأمول .

